مائتا عام على :

حملة المنافقين الفرنسيس

الدكتورة
زينب عبد العزيز

مائتا عام على :

حملة المنافقين الفرنسيس

الدكتورة

زينب عبد العزيز

أستاذ الحضارة بآداب المنوفية

١٩٩٨م

المنافق الخالص هو :

" من إذا اؤتُمن خان ، وإذا حدّث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر " ...

صدق رسول الله ﷺ

(متفق عليه)

إلى شهداء عدوان الحملة الآثمة ...

إلى عشرات الآلاف من الأبرياء ...

إلى تلك الدماء التى اغتصبتها وأهدرتها الحملة الفرنسية

ظلماً ، ونفاقاً ، وجبروتاً ...

تقدمة

حملة " الملاعين الفرنسيس " -كما كان يطلق عليهم من رأوهم من أجدادنا المتقين - حملة نفاق ، لها ظاهر منه الرحمة والاستنارة وباطن وحقيقة من قِبَلِهِ العذاب والاستعمار والكفر با لله أولاً وبالإنسان ثانياً وبالقيم ثالثاً .

وكتاب الأستاذة الدكتورة زينب عبد العزيز ألقى الضوء على تلك الحملة وما اكتنفها من فساد وإفساد فى الأرض وأنها كانت قد خططت ودبرت بليلٍ قبل الثورة الفرنسية وأنها محض استعمار ومصالح شخصية بغض النظر عن آلاف الضحايا أو شيوع الظلم والاستغلال الذى تم ، وألقت الضوء أيضاً على أنها كانت محطمة للنهضة التى بزغ نورها فى الشرق والتى اتخذت طريقها فى البناء اللغوى الأساس لحضارة يُعد النص محورها : منه تنطلق العلوم والفنون والآداب وبه يتم التقويم وعليه تقوم الخدمة وإليه يعود السلوك والنشاط ، نهضة كانت ستسير سيرها السابق لها منذ قرون إلاّ أنها أكثر يقظة وأكثر سعياً وأشد وعياً . فأبى المنافقون الفرنسيس إلاّ أن يقتلوا تلامذة النهضة ويسحقوها.

وفى هذا الكتاب الوثائقى سترى المقالات التى كتبتها المؤلفة تعالج سياسة نابليون ازاء المصريين والإسلام وتترجم أيضاً مجموعة من أهم الوثائق الكاشفة للحملة وأهدافها بل ونفاقها والتستر منذ البداية بظواهر كاذبة والنص على الأهداف الحقيقية فى التقارير السرية ... نفاق عميق مُدَبَّر :

﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ ٥٤ آل عمران

﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ ٩ البقرة

ومهما تكن عند امرءٍ من خليقة ... وإن خالها تخفى على الناس تعلم

﴿ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ ٧٢ البقرة

ففى فصل السياسة الإسلامية لبونابرت ينصون على التقرب من المسلمين والمصريين ، ثم ترد النصوص الواضحة أن ذلك إنما كان للخداع حتى لا يقف أحد فى طريقه .

وترجمت المؤلفة تقارير مجالون ودى توط وسان دييه وغيرها من الوثائق التى تشهد بالحقائق وإن طال الزمان – هل من يدعو إلى الاحتفال بالحملة الآثمة جاهل ؟ أو مغرض ؟ أو يتكلم بلساننا وقلبه معلق بباريس لغرض أو لآخر ؟ أو فقد حسه الوطنى والانتماء والهوية باعتبارها ضلالات الماضى ؟

لنترك الاجابة للقارئ الكريم ، وللوثائق تشهد وتصرخ بالحقائق ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

أ.د. على جمعة محمد

أستاذ الشريعة بالأزهر الشريف

مقدمة

فى زمن اختلّت فيه الموازين والقيم حتى ضاعت معالمها أو كادت ، وتداخلت فيه الصراعات واحتدت حتى لم يعد يستبان لها خيط ... وفى زمن أوشكت فيه الهمم والضمائر أن تخبو وتغوص فى غياهب التعتيم والضياع حرصاً على مصلحة ذاتية أو تضامناً مع ما يحاك ، حتى وإن تم ذلك على حساب الحق والوطن والدين ... لابد من وقفة يعاد فيها توضيح الأمور وإظهار الحق حتى لا تطمس معالمه بل وحتى يمكننا مواصلة الطريق .

والحملة الفرنسية على مصر من تلك الأحداث التى ينطبق عليها ذلك الخلط والتعتيم القائم على النفاق بأوسع معانيه ... ولا تكمن أهميتها فى حد ذاتها بأحداثها فحسب ، وإنما فى كل ما يترتب عليها من أحداث جسام منها ضياع الحق وتحريف التاريخ واستباحة بلدنا وتراثنا وديننا لطعنات جديدة أكثر حدة وأكثر شراسة فى ذلك القرن المشرف على الأبواب والذى يعدّون فيه العدة لزيادة إحكام القبضة ، لا لمجرد الاستعمار والاستغلال فقط وإنما لاقتلاعنا من الجذور ...

ولا أزعم أننى اطلّعت على شئ يذكر من كل تلك الكتب والوثائق والمراجع التى تزخر بها المكتبات الفرنسية العامة أو المتخصصة ، فهى بحاجة إلى سنوات ، إنها مجرد شذرات جد قليلة ، لكنها تكفى للكشف عن حقائق لا يمكن إنكارها أو إغفالها لتقييم وتحديد معالم هذه الحملة ... إنها مجرد إسهامة متواضعة صادقة للذكرى والتاريخ ...

زينب عبد العزيز

الاحتفال بالحملة الفرنسية على مصر خيانة
خيانة للوطن ، والشعب ، والتاريخ

نعم ، الاحتفال بالحملة الفرنسية على مصر خيانة بكل المقاييس وليس مجرد " عار " كما وصفها بعض الأمناء الذين أثارتهم هذه الاحتفالات الساخرة البجاحة...أنها خيانة فى حق الوطن الذى إستباح المستعمر لنفسه أن يضربه بالمدافع ويهدّم دياره ويحرقها ويسرق محتوياتها ويدمر مالم يمكنه سلبه ونهبه ... وخيانه فى حق الشعب الذى استباح المستعمر الغازى لنفسه أن يسفك دماء الأبرياء من الرجال والنساء والأطفال ، وأن يقطّع الرؤوس ويطوف بها الشوارع والطرقات ترويعاً ، وأن يغتصب النساء والفتيات ويبطش بهن حتى إشمأزت الجنود الغازية من تلك الأوامر العاتيه الوحشية ... وخيانة فى حق التاريخ ، فالوثائق ما زالت تنبض بدمائها الساخنة وتزخر بما يندى له الجبين وتثور له حمية الحجارة فما بالنا بالأدميين ؟! وكل هذه الوثائق- إلا القليل النادر منها – كتبها نفس أعضاء هذه الحملة وكل من ساهم فيها، من الرأس المدبر لها حتى أخمص أقل جندى بها ... فكيف نحتفل ؟!.

أن أيه حكومة ، مهما كانت سذاجتها أو عدم خبرتها السياسية ، لا يمكنها أن تجازف بإرسال جيش قوامه ستة وأربعون ألفاً من أبنائها المحاربين والمدنيين بزعم تحرير شعب ليس على حدودها ولا من دينها أو ملتها ، أو حتى بزعم تنويره وتحديثه !! فما بالنا والحكومة المعنية هنا حكومة فرنسية محنّكة تجيد رسم الخطط وتوارث المخططات وتمارس الاستعمار بالفعل من قبل تاريخ الحملة بعدة قرون ؟!.

والحملة الفرنسية على مصر كانت خطة مدروسة مدبرة مبيّتة فى كل صغيرة وكبيرة ... بل كانت فى حقيقة الأمر– حملة صليبية إستعمارية بحتة وبكل أبعاد هذه العبارة وتنوع مجالاتها ... خطة بدأ التخطيط لها منذ فشل آخر حملة صليبية على بلاد الإسلام. وما أسهل تتبع ذلك فى كتابات الغرب ووثائقه، وما أسهل تتبع ذلك فى مختلف المراجع الفرنسية من كتابات المستشرقين المبشرين والأدباء والرحالة ورجال السياسية الرسميين والخفيين منهم ...

وعبارة " إستعمار مصر " أو إضفاء صفة الإستعمار على الحملة الفرنسية ليس تجنياً عليها وإنما قائلها هو نابليون شخصياً ، فى المذاكرات التى كتبها عن هذه الحملة وهو فى معتقل جزيرة سانت هيلانه إذا كتب قائلاً عن تلك الفترة " سأستعمر مصر ... سأستعمر مصر واستورد الفنانين والعمال من جميع الأنواع والنساء والممثلين . إن ست سنوات تكفينى للذهاب إلى الهند لو سارت الأمور سيراً طيباً ".

ولا نعرف سلطة يمكنها التحدث عن هذه الحملة أكثر من ذلك الذى قادها وهو ملم ومدرك لكل صغيرة وكبيرة تتعلق بها.. وتحليل هذه العبارة وحده يكفى لنفهم منها إن الهدف هو إستعمار إستيطانى قائم على غرس التغريب والإنحلال ، والوصول إلى الهند للأنتقام من النفوذ البريطانى. والوصول إلى الهند فى نظره كان سيتم عن طريق شق قناة السويس – ذلك المشروع الذى لم يتمكن من انجازه وإنما بدأه السان سيمونيون الذين رأوا فيه هم أيضاً " ضرورة دينية للربط بين القارات".. ويقول جان مارى كاريه عن رجال هذه الحملة الجديدة " أنهم سافروا بنفس الحماس الذى ينطلق به الصليبيون الجدد ... لقد

كانت فعلاً حملة صليبية جديدة ، بدأتها فرنسا الجمهورية عام ١٧٩٧، وواصلتها بوعي وإدراك عام ١٨٣٣" "رحالة وأدباء فرنسيين فى مصر ".

وليس أدل على أن تلك الحملة كانت حملة صليبية أساساً، من تلك البيانات التى كان يكتبها نابليون ويبدأها بالتسلل الناعم لدرجة التخلى عن دينه ، وينهيها بالوعيد والتهديد . ويكفى أن نقرأ بداية تلك البيانات : " بسم ا لله الرحمن الرحيم،لا إله إلا ا لله لا ولد له ولا شريك له فى ملكه "! أى أنه كان يبدأها بالتنكر للثالوث الذى إبتدعه كهنوت المسيحية عام ٣٢٥ مساوياً السيد المسيح با لله عز وجر ، وينهيه قائلاً : " لكن الويل كل الويل للذين يعتمدون على المماليك فى محاربتنا فلا يجدون بعد ذلك طريقاً إلى الخلاص ولايبقى منهم آثر " !!

ولم يكتف نابليون بذلك الخداع الرخيص وإنما كان يتّبع إجراءاً وحشياً غير مسبوق ، فمع مشرق كل يوم جديد كان يقتل فى القاهرة وحدها خمسة أو ستة أشخاص من طلبة الأزهر علمائه أو من المحرضين على مقاومة الغزاة ، ويأمر بأن تعلق هذه الرؤوس على عصى طويله ويطاف بها فى الشوراع . والقول هنا ليس للجبرتى وحده وإنما لنابليون أيضاً مع إختلاف الرقم، فها هو يكتب إلى زايونشك ، قومندان المنوفية فى ٣٠ يوليو ١٧٩٨ قائلاً : يجب أن تعاملوا المسلمين بمنتهى القوة ، وإنى هنا أقتل كل يوم ثلاثة أفراد يطاف برؤوسهم فى شوراع القاهرة، فهذه هى الطريقة الوحيدة لإخضاع هؤلاء الناس، وعليكم أن توجهوا عنايتكم لتجريد البلاد قاطبة من السلاح " !

بل وفى عصر الواحد والعشرين من شهر أكتوبر ١٧٩٨ أمر باقتحام الجامع الأزهر، فقد ضربوا بالمدافع والبنبات على البيوت والحارات وتعمدوا بالخصوص الجامع الأزهر وحرروا عليه المدافع والقنبر ... وبعد هجمة من

الليل دخل الافرنج المدينة كالسيل ومروا فى الأزقة والشوراع لا يوجد لهم ممانع ... ثم دخلوا إلى الجامع الأزهر وهم راكبون الخيول وبينهم المشاه كالوعول . وتفرقوا بصحنه ومقصورته ، وربطوا الخيل بقبلته ، وعاثوا بالأروقة والحارات وكسروا القناديل والهارات وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين والكتبة، ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأوانى والقصاع والودائع والمخبآت بالدواليب والخزانات، ودشتوا الكتب والمصاحف ، وعلى الأرض طرحوها ، وبأرجلهم ونعالهم داسوها . وأحدثوا فيه وتغوطوا ، وبالوا وتمخطوا، وشربوا الشراب وكسروا أوانيه وألقوها بصحنه ونواحيه ، وكل من صادفوه به عروه ومن ثيابه أخرجوه"! (تاريخ الجبرتى) .

واحتلال مصر يعنى بالنسبة لفرنسا الحصول على قاعدة عسكرية تمكنها من السيطرة على ما جعلوه وأطلقوا عليه وصمة " العالم الثالث " ... أى إنه يمكّنها من سهولة الوصول إلى الهند- انتقاماً من السلطات البريطانيه التى طردتها لتوها من هناك ، ولفتح مجال التبشير والتجارة والإستيلاء على موارد تلك المنطقة ، كما يمكنها من سهولة التوغل إلى أفريقيا لنفس السبب . وهو ما دعاها إلى احتلال المغرب والجزائر بعد ذلك وإن نافستها إيطاليا فى احتلال ليبيا .

وعبارة " العالم الثالث " هذه هى الصيغة المهذبة أو الملتوية لعبارة " تبعية إستعمارية " فكيف نحتفل ؟! كيف نحتفل بمستعمرينا وقاتلينا وناهبينا ؟!

حتى ما يطلقون عليه " الجانب التنويرى للحملة " فى حين أنه حتى ذلك الجانب ، بما فيه المطبعة التى جلبوها معهم ، كانت لخدمة مصالحهم وطباعة منشوراتهم وطباعة الجرائد التى يتم من خلالها " نشر ثقافتهم وتغيير عادات وتقاليد المصريين " وهى عبارة وردت على لسان العديد منهم بدأً من نابليون

وفيفان دينون وغيرهم ؟ بل ها هو جان كلود فاتـان J. Cl. Vatin يصـف هـذا الجانب الثقافى قـائلاً : " أن الجـانب الفنىوالعلمـى للحملـة هـو بمثابـة محاولـة لتغطية هزيمة معركة أبى قير ونصر البريطانيين، ونسيان موت كليبر وإستسـلام مينو، والعودة المنهزمة للجيش الفرنسي، ولإضفاء نوع من الوقار على الهزائـم والجرائم بالاكتشافات العلمية والفنية " !!

إن ما تقوم به فرنسا بهذه الاحتفالات المفروضـة علـى الجـانبين هـى عمليـة تزييف كبرى : تزييف للتاريخ، وإهدار لدم الشهداء، وضياع لحق الوطن.

فبدلاً من المساهمة فى هذا التزييف، ليكن موقفنا أكثر أمانة وإحترامـاً لهـول وجلال الذكرى ، وأن نجعل من تاريخ دخول الحملة مصر يوم حداد رسمى، لا تنكس فيه الأعلام فحسب، وإنما توظف خلاله وسائل الإعلام تنديداً بفظائعهـا وليس طمساً لمعالمها . وأن تقوم أقسام اللغة الفرنسية بكافة الجامعـات المصريـة إلى جانب كل ملم بهذه اللغة بدراسة وثائق هذه الحملـة واسـتخلاص الحقـائق الكامنة فيها .

وأن تقوم هيئة الآثار باسترجاع كل ما تم نهبه من آثار مصرية وإسلامية وقبطيـة ومخطوطات ووثائق نهبها رجال الحملة وكل من جاءوا قبلهم وبعدهم ...

إتقوا ا لله فى هذا الوطن السليب وشعبه الجريح ، وتاريخه المفـترى عليـه ... ففى عام ١٩٩٢ احتفل هنود أمريكا الجنوبية بذكرى مرور " خمسة قرون مـن المقاومة الهندية " فى مواجهة أحفاد كريستوفر كولومبس ودفاعـاً عـن هويتهـم الإنسانية وعن ثقافتهم ... فهل نحن ، أبناء حضارة هى مشعل الحضـارات فـى العالم، والأمناء على رسالة التوحيد الذين استخلفهم ا لله سبحانه وتعالى لعمـارة الأرض، قد انهار انتمائنا لوطننا وديننا إلى هذا الحد ؟!.

إن ضـرب مصـر واحتلالها كـان بمثابـة الضربـة القاضيـة التـى أتـت علـى الامبراطورية العثمانية ، وهـو الـذى سمـح لكـل مـن انجلـترا وفرنسـا أن يقومـا بسلخها كالشاه ، بعد الحرب العالمية الأولى ، وتقاسم أجزائها للسـيطرة على منابع البترول وإكتمل الثالوث الإستعمارى بانضمام الولايات الأمريكية ...

فبأى منطق نحتفل ؟! وبأى ضمير ننسى دم الشهداء ؟!

الحملة الصليبية الإستعمارية على مصر وجانبها التنويرى !..

عندما ينهار الإنتماء الوطنى لدى شخص أو جماعة ، فإن ذلك يدل دلالة واضحة على إنهيار العقيدة والقيم الأخلاقية فى نفوس هؤلاء الشرذمة المشوهة التى لا تعرف للوطن حقاً ولا لله عبادة ولا لأقوامها صلاحاً ولا لهويتها إدراكاً ... ويتضح ذلك فى أولئك النفر الداعين إلى الاحتفال بعدوان الفرنسيين الآثم فى حملتهم الصليبية الإستعمارية على مصر وشعبها ودينها وتقاليدها وعاداتها ...

يكاد لا يصدق العقل أن يقوم إناس يسكنون وطننا وينتمون لأرضنا ويتكلمون بلساننا ويظهرون لنا عقيدتنا ، بل منهم من وليناهم بعض أمرنا، يدعون إلى الاحتفال بالعدوان الذى يمثل نقطة فارقة فى تاريخ حضارتنا، نقطة أدت إلى تبعية مذمومة مستمرة إلى يومنا هذا ، فرّخت وأنجبت وأنبتت هؤلاء المشوهين ثقافياً وحضارياً حتى يحتفلون بمقتل أهلهم وإبادة علمائهم ، وهلاك أسس النهضة التى كانت تلوح فى أفق الشرق ، وسرقة آثار ومخطوطات ووثائق حضارتهم وتراثهم !

ومن اللافت للنظر والداعى إلى الدهشة ، أنه حتى الأمناء الذين اعترضوا على هذه الاحتفالات، راحوا يفصلون ويجزؤن الحملة ، ويعترضون على الجانب العسكرى الدموى التغريبى منها، ويرحبون بالجانب العلمى لها ، ذلك الجانب الذى يطلق عليه زوراً وبهتاناً " الجانب التنويرى " أو " التحديثى "،

في حين أن الجانب العسكرى والجانب العلمى وجهان لعملة واحدة !...

وقبل الاسترسال فى هذا الموضوع نبدأ ببعض الاستشهادات بأقلام من صنعوا وعاشوا وعثوا فى هذه المجازر أو علقوا عليها :

" كان هدف حملة بونابرت على مصر تحويل مصر إلى مستعمرة لفرنسا تجنى من ورائها كسبا. ولتحقيق هذا الهدف لم تكن اللجنة العلمية أقل أهمية من الجيش " (كرستوفر هيرولد : بونابرت فى مصر).

" كانت المهمة الأساسية للمستشرقين المرافقين للحملة الفرنسية القيام بحلقة الوصل بين الشعب والسلطات الفرنسية وترجمة بيانات مجلس القيادة إلى العربية كما كان عليهم القيام بالترجمة الفورية ... ولقد استفاد مستشرقونا من وجودهم فى مصر لتحسين معرفتهم باللغة العربية " (جان- مارى كاريه: "رحالة وأدباء فرنسيين فى مصر").

" بعد رحيل الحملة ظلت فرنسا وفيه لتوجهات ودروس لجنة العلوم والفنون والمعهد العلمى حيث قادت بها مصالحها السياسية والأقتصادية على أحسن وجه " (إدوارد دريو :"موجز تاريخ مصر").

ولا أدل على معنى الجانب" التنويرى " من تلك الفقرة التى أوردها محمود محمد شاكر فى كتابه من خطاب نابليون ، بعد رحيله عن مصر ، إلى خليفته كلبير : " اجتهد فى جمع ٥٠٠ أو ٦٠٠ شخصاً من المماليك حتى متى لاحت السفن الفرنسية نقبض عليهم فى القاهرة أو الأرياف وتسفرهم إلى فرنسا، وإذا لم تجد عدداً كافياً من المماليك، فاستعض عنهم برهائن من العرب ومشايخ البلديه ، فإذا ما وصل هؤلاء إلى فرنسا يحجزون مدة سنة أو سنتين . يشاهدون فى أنحائها عظمة الأمة (الفرنسية) ويعتادون على تقاليدنا ولغتنا ،

ولمّا يعودون إلى مصر يكون لنا منهم حزب يُضم إليه غيرهم " .

" كنت قد طلبت مراراً جوقة تمثيلية . وسأهتم اهتماماً خاصاً بارسالها لك . لأنها ضرورية للجيش ، وللبدء فى تغيير تقاليد البلاد " ("رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا").

ومضمون الرسالة غنى عن الشرح والتعليق فالمطلوب هو الإفساد والإبتعاد عن الهوية وتكوين حزب من الأتباع ، يعاونه على تغيير عادات وتقاليد البلاد. ذلك هو الدور" الثقافى " الذى تقوم بـه فرنسـا الصليبيـة بعـد أن فشـلت فـى حملتها الدموية الغاشمة ... وهذا الدور القائم على الإفساد وإقتـلاع الهويـة هـو الذى تم فـى البعثـات التعليميـة التـى بـدأت بعـد ذلـك منـذ عهـد محمـد علـى عام١٨٢٦ ، وما زالت المحاولات دائبة حتى يومنا هذا .

أما المطبعة التى يتغنى بها البعض فقد أحضرها نابليون معه ليطبع عليها جميع منشوراته التى كانت كلهـا قائمـة علـى الفسق والخـداع والتلاعـب بـالدين ، وأول كتاب طبع عليه فكان " تطبيقات فى العربية الفصحـى " لخدمـة دارسـى العربية من أفراد حملته وقد قام المجمع بـاصدار صحيفـة أسـبوعية هـى" كوربيـه دى لجيبت " (بريد مصر) ، ودوريـة أدبيـة اقتصاديـة – سياسـية ، تعـد لسـان حال المجمع ، بعنوان " لاد يكاد إجبسيين " (العقد المصرى) وكانت فى حقيقـة الأمر مركزاً لتجميع البيانات والمعلومات لتصب فى كتاب " وصف مصر " أو فى غيره من المجالات ... إلى جانب طباعة الحوليات ، وكتاب قواعـد باللهجـة العامية وآخر عن " سقوط القسطنطينية " باللغة العربية .

ولا يختلف الهدف الذى دعا نابليون وفريق العلماء إلى الإهتمـام بمـا أطلقـوا عليه عمليات الإصلاح إلا حاجتهم الملحّة إلى ذلك . فبعد انهزامهم فى معركة

أبى قير كان عليهم الاعتماد على أنفسهم فى إعادة تكوين ما يحتاجونه من معدات لمواصلة الاحتلال والتدمير ، فبدأت المشاريع ، ومنها بناء الترسانات ومصانع البارود والطواحين والأفران والمستشفيات والمدارس وشق الترع بل واستزراع بعض المحاصيل وتحسين وسائل الزراعة إلخ ... فهل كان ذلك كله حباً فى مصر وأهلها الذين كانوا يواصلون إبادتهم أم لاستيفاء احتياجاتهم الملحة لمواصلة إستعمارهم ؟!

أما عن مجال الآثار ، فحدث ولا حرج !!

ولن نذكر سوى واقعة واحدة مما أورده فيفان دينون الذى" اكتشف " عند رؤيته أحد المعابد أن المصريين القدماء كانوا يعرفون الكتابة وأنه كانت لديهم "كتب" ! وكم كانت دهشته عندما تأكد له بالبرهان القاطع إذ " ما هى إلا سويعات حتى أمتلكت الدليل بين يداى فقد حصلت على مخطوط فى يد مومياء رائعة الجمال أحضروها لى " ("رحلة فى مصر السفلى والعليا") .

ويعلق جان مارى كاريه على هذه العبارة قائلاً : " إننا ندرك مدى انفعاله ، فحتى هذه اللحظة لم يكن الرحالة الفرنسيين قد جلبوا للمكتبة الملكية سوى مخطوطات قبطية وسريانية وعربية. لكنها كانت أول مرة منذ الفترة المسيحية أو القرون الوسطى البعيدة التى يتم فيها اكتشاف بردية " ("رحالة وأدباء فرنسيين فى مصر") .

بل لقد كان ولعهم بجمع المخطوطات وإدراكهم لأهميتها أن جان جوزيف مارسيل، مسئول مطبعة الحملة قد قام "بحركة بطولية" فى نظر جان مارى كاريه الذى يورد فى المرجع السابق الذكر أنه " أثناء ثورة القاهرة ، فى أكتوبر ١٧٩٨، وبينما كانت مدافع دومّارتان تدك الجامع الأزهر ، مركز التمرد

الشعبى ، ألقى جان جوزيف مارسيل بنفسه وسط النيران لينتزع منها مخطوطات قرآنية نادرة " – ولا شك فى أنه لم ينقذها حباً فى الإسلام وإنما لتضم إلى بقية المخطوطات بالمكتبة الملكية الفرنسية ومكتباتها الأخرى ...

وينهى جان مارى كاريه هذه الفقرة بالعبارة التالية : " والمعروف طبعاً أن حجر رشيد وتابوت نكتانبو ، إلى جانب العديد من قطع الآثار الأخرى ، قد صادرتها سلطات الأعداء وأخذتها إلى المتحف البريطانى " !!.

ونطالع فى نفس المرجع – وهو من إصدارت المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة ، أى أننا لا نتجنّى عليهم بهذه المعلومات – أنه بعد استسلام مينو عام١٨٠١ ، " إضطر علماء الحملة إلى إستخدام كافة الوسائل الدبلوماسية الماهرة الحيوية ليأخذوا معهم إلى فرنسا ، رغم حظر انجلترا ، كل عيناتهم من النباتات الجافة ، ومجاميعهم من المعادن والحيوانات ، وكراتينهم المليئة بالخرائط والرسومات ، وجزءاً من الآثار التى كانوا قد أكتشفوها ".

بل لقد كان بين أعضاء هذه الحملة "العلمية" مسئولاً عن انتقاء قطع الآثار وصيانتها وتغليفها لشحنها إلى باريس ... وليست المسألة بحاجة إلى دليل اضافى أو أية وثائق أخرى ، فالواقع وحده بكل ما تضمه متاحفهم من آثار مصرية بمختلف عصورها يشهد على سرقاتهم المخزية .

وإذا ما لخصنا أهم النقاط الواردة فى المقتطفات السابقة ، لوجدنا أن مهمة "الجانب العلمى" فى تحويل مصر إلى مستعمرة فرنسية – وهو من الأهداف الرئيسية للحملة باعتراف من اقترفوها – تنقسم إجمالاً إلى قسمين : متطلباتهم الشخصية من إستطلاع أو تجسس وإدارة شئونهم السياسية والاقتصادية ، وتكوين فريق من العملاء والأتباع، وسرقة الآثار والمخطوطات والنفائس،

والقسم الآخر ، وأن كان لصالحهم أساساً أيضاً ، وإنما يقع أثره على المجتمع مباشرة ، وهو : الاقتلاع من الهوية المصرية الإسلامية وتغيير عاداتنا وتقاليدنا حتى عن طريق الفنون والمسرح وخلع حجاب المرأة بزعم أنه من باب الأمن ، كما قال نابليون ! ونشر الفساد وبيوت الدعارة وإباحة بيع الخمر وما إلى ذلك ... ويكفى أن نقرأ ما كتبه بييرلوتى Pierre Loti حول التغيير الذى طرأ على البلاد من بعد الحملة المشئومة على مصر، إذ راح ينـدب موت القاهرة "التى تحولت إلى سوق دولية حيث أتت إليها الحضارة الفرنسية بالخمّارات والقمار والبيوت المشبوهة وفتيات الليل ... وأن تغريب مصر أو فرض الحضارة الغربية عليها يطفىء طابعها ويكتم تألقها ويقلل من قوة إبداعها وإلهامها" ("موت فيلة") .

فإذا كانت الحملة الصليبية الإستعمارية الدموية على مصر قد فشلت بكل مجازرها فى إقتلاع الإسلام ، فإن الحملة "التنويرية " التى سبقتها وواكبتها واستمرت بعدها لتربطنا فى تبعية ملموسة حتى يومنا هذا ، تعتمد على التسلل البطىء فى تغيير العادات والتقاليد والقيم والمفاهيم ، وكلها عوامل تؤدى على المدى الطويل إلى التراخى والابتعاد عن الإيمان با لله وعن الالتزام بتعاليمه عز وجل ...

أليس من الأكرم لنا وأتقى أن نتمسك بديننا وعقيدتنا وتراثنا وتقاليدنا الإنسانية ، ونجعل من ذلك العام المزمع فيه إقامة احتفالات مهينة مخزية ، عام يقظة لضمائرنا ، تكرس فيه أجهزة الإعلام والمؤسسات الفكرية والثقافية والجامعية للتعريف بحقيقة هذه الحملة الصليبية الإستعمارية ، لكى لا نهدر دم شهدائنا ، وأن نطالب بإعادة ما سلبوه ونهبوه من تراثنا ، لكى لا نفرط فى كياننا وفى حضارتنا أكثر مما فرطنا ، وأن نطالب بالتعويضات عن نفقات هذه

الحملة الضارية التى أعلن نابليون أن تتم على نفقات الشعب الـذى غـزاه ، إذ قال " أن على الفلاح أن يتحمل العبء كله " ؟! بل سـنرى عمـا قليـل ، فـى "وثائق ما قبل الحملة"كيف أن فرض الضرائب علـى الشـعب المصـرى لتغطيـة نفقات الحملة كان جزءاً من الخطة !

اتقوا ا لله فى الوطن ، ودم الشهداء ، والتاريخ الذى يتم تحريفه ! .

مجازر الحملة !!!

مع اقتراب نهاية القرن العشرين ، وبعد حوالى خمسمائة عام من ممارسة الغرب للإستعمار، وإنكشاف كل ما يواكبه من إعداد وإجراءات وممارسات ، وبعد أن كتب العديد من أمناء نفس ذلك الغرب لكشف الإستعمار ومراحلة وتقنيات انسحابه ، بل تناولوا ما يتبعه أو ما يفرضونه من أنظمة عسكرية يواصل المستعمر نفوذه من خلالها ، وكل ما يفرضه على البلدان التى تم إستعمارها من عمليات تغريب وطمس لهويتها وثقافتها وتراثها ودينها ...[1] وانكشف تكرار هذه المنظومة حتى مل التكرار نفسه ، لم يعد يحق لأى مخلوق ، أياً كان إنتماؤه أو اتجاهه ، أن يصف الحملة الفرنسية على مصر بغير حقيقتها وبغير ما وصفها به من صنعوها وعاشوها : فقد كانت حملة صليبية إستعمارية بكل المقاييس وبكل أبعاد هذه العبارة ...

كما أن هناك أطراً عامة لا يجب إغفالها عند تناول هذه الحملة : الإطار الدينى ، والإطار السياسى ، والإطار الاقتصادى ، والإطار الحضارى ، إلى جانب الآليات العامة من إعداد وأسلوب وممارسات .

إن الخلفية الدينية البعيدة المدى تكشف عن العداء الغائر فى الغرب المسيحى الذى لم يكف عن محاربة الإسلام منذ بداية انتشاره حتى يومنا هذا . فمنذ الحرب الصليبية الأولى حتى مطالبة البابا يوحنا بولس الثانى بتنصير العالم قبل عشية الألفية الثالثة ، والمطلب واحد لم يتغير ... أما من الناحية الدينية

(١) راجع كتاب سرج لاتوش عن " تغريب العالم" وقد ترجم إلى العربية .

المواكبه للحملة الفرنسية على مصر ، ففى عام ١٤٩٢ كان الغـرب المسيحى قد أنتهى من إنهاء دولة الفتح الإسلامى فى الأندلس وبـدأ يدبـر الأمـر لوقـف إمتداده من الطرف الآخر الممثل فى الأمبراطورية العثمانية . وكانت مصر تحتل الصدارة فيها بحكم موقفها وماضيها الحضارى وبحكم الإعداد لنهضـة إسـلامية جديدة بقيادة الأزهر وعلمائه .

واتسـم الإطـار السياسـى العـام بـالصراع بـين القـوى الإسـتعمارية لتقاسـم النصف الجنوبى من العالم والاستحواذ على موارده الطبيعية ... أمـا فـى الفـترة المواكبة للحملة فكـانت انجلـترا البروتسـتانطية قـد نجحـت فـى إقتـلاع النفـوذ الفرنسى من الهند. ولم تكن فرنسـا الكاثوليكيـة لتقبـل بهـذه الهزيمـة المزدوجـة وتبحث عن أقرب الطرق للوصول إلى الهند وجنوب شرق آسيا.

أمـا الإطـار الاقتصـادى فهـو مرتبـط بالإطـارين السـابقين . فهـذا النصـف الجنوبـى الـذى جعلـوه متخلفـاً ووصمـوه بعبـارة " العـالم الثـالث " مـن جـراء استغلالهم له ، يحتوى على أهـم وأثمـن المـوارد الطبيعيـة مـن بـترول ويورانيـوم ومعادن نفيسه ومحاصيل ...

ولا يقل الإطار الحضارى أهمية ، فبينما كان الغرب يغط فى غياهب الظلمـات والتعتيم ، كانت الحضارة الإسلامية فى أوج ذروتها وتحمـل فـى خلفياتهـا أصـداء الحضارات السابقة . وراح الغـرب ينهـل مـن علمـاء المسـلمين وعلومهـم دون أن يغفل طمس معالم هذا الفيض الإسلامى ، فطمـس حتـى معـالم الأسمـاء ليصبـح ابـن رشـد : أفـيرويس ، وابـن سـينا : أفيسـين ، وابـن باجـه : أفمبـاس ، والفـارابى : فرابيوس ... حتى اسم سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام طمسوه إلى : " ماأوميه"، وهم أول من يعلم أن الأسماء لا تترجم ولا تحرف وإنما تكتب كما هى .

وإذا ما نظرنا إلى منهج الحملة الفرنسية على مصر لوجدناها تتسم بكل مكونات المنظومة الإستعمارية السابقة لها أو التالية عليها ، مع تفاوت في المستوى الحضارى للآليات ... فالإعداد والأسلوب والممارسات والتغريب تكرارية واحدة . فالإعداد تضمن مختلف أنواع التجسس بالرحالة والمستشرقين والمبشرين والسياسين . والأسلوب كان قائماً على الغش والخداع من أول بيان أذاعة نابليون ، إلى جانب استغلال بعض الأقليات –من أى ملة– تقبل التعاون معه . والممارسات تضمنت الإبادة بقدر الإمكان ، والسلب والنهب والتدمير والحرق والترويع والاغتصاب . أما التغريب فقام على تغيير العادات والتقاليد وإباحة بيع الخمور وإفشاء الدعارة والقمار . بل ولم يختلف عنصر النفقات ، إذا اهتم نابليون ومن سبقوه في التخطيط أن تكون نفقات الحملة على حساب الشعب المصرى وقوته بل من دمائه وحياته ...

ولا يسع المجال هنا لتناول كل الوثائق[١] التى تكشف وتدين هذه الحملة الصليبية الإستعمارية، وكلها بأقلام من قاموا بتنفيذ مجازرها من أكبر رأس لها حتى أقل جنودها شأناً . وسنكتفى ببعض الاستشهادات ، لعلها تجعل تلك الفئة التى لا تعرف للوطن حقاً ولا لله عبادة ولا لأقوامها صلاحاً ولا لهويتها إدراكاً أن تخجل وتكف عن المطالبة بالأحتفال بالعدوان الذى يمثل إنهيار لحضارتنا ونقطة تحوّل أدت إلى تبعية مذمومة ما زالت مستمرة حتى يومنا هذا... تبعية فرّخت وأنجبت هؤلاء المشوهين ثقافياً وحضارياً حتى يحتفلوا بمقتل أهلهم وإبادة علمائهم وهلاك أسس النهضة التى كانت فى أفق الشرق ...

(١) قام إدوار جوبى بجمع هذه المراجع الخاصة بالحملة الفرنسية على مصر فى ببليوغرافيا طبعت فى "مجلة معهد نابليون" عام ١٩٧٨ .

الاستشراق :

لم يكن فولنيه مواكبا للحملة وإنما سبقها إلى مصر وسوريا فى أعوام ١٧٨٣و١٧٨٤و١٧٨٥ ونشر رحلاته عام١٧٨٧. وقد سافر إلى الشرق ليرى وليدرس عن قرب كيفية هدم الأمبراطورية التركية أو كيفية إضعاف السلطة العثمانية أنذاك . وقد كتب فولنيه عن مصر وحكومتها ونظام أمنها وحمايتها قائلاً : " من الملاحظ أنه فى مصر بأسرها وعلى كل حدودها لا توجد أية حصون ولا معاقل ولا سلاح مدفعية ولا سلاح مهندسين وأن كل سلاح البحرية لا يتضمن سوى الثمانية وعشرين قطعة القابعة فى السويس والتى تم تسليح كل منها بأربعة مدافع منجنيق صدأة ، يقوم عليها بحارة لا يعرفون البوصلة " (رحلة إلى سوريا ومصر–المجلد الأول) .

ويقول جان مارى كاريه : " لقد ارتسمت عملية الاستشراق بمعنى الكلمة وبوضوح فى مصر منذ بداية القرن السابع عشر بسبب العلاقات التجارية والسياسية وبعثات المبشرين ... ومن أهم كتابات هؤلاء المبشرين الأب كوبان وكتابه المعنون " درع أوربا أو الحرب المقدسة " عام ١٦٨٦، الذى يوجه طواله الدعوة لكافة المسيحيين ضد الكفرة المسلمين ويحث كافة ملوك الكاثوليك لاشعال حرب صليبية جديدة ضد الأتراك . وقام الأب كوبان بالإشارة إلى نقاط الضعف فى البلاد وعدم مقدرة المصريين على الدفاع عنه " ("رحالة وكتاب فرنسيين فى مصر") .

وكان الوجود الفرنسى قد بدأ يخبوا فى منتصف القرن الثامن عشر ، ووفقاً لتقرير الأب دى بينو " لم يعد بالقاهرة من الفرنسيين عام١٧٧٧ سوى عشرين شخصاً رسمياً بل ولم يكن هناك منذ عامين أى قنصل بها " (رحلة من إيطاليا إلى

مصر وجبل لبنان وفلسطين والأراضى المقدسة " طبع عام١٧٨٧). الأمر الذى دفع فرنسا إلى تعيين مستشرق فى وظيفة قنصل عام لها بالإسكندرية عام١٧٩٣، هو شارل ماجللون . ويقول عنه جان مارى كاريه : " إنه من المستشرقين الضالعين ويمثل طليعة أولئك المراقبين الجسورين ... وقد سافر فى مطلع عام١٧٩٧ لتقديم تقريره للحكومة حاثاً إياها على التدخل العسكرى فى مصر " .

وقد قام جياردو بنشر هذا التقرير فى مجلته المعنونه "ريفو ديجيبت" (مجلة مصر) عدد سبتمر ١٨٩٦. كما كتب عنه ج. جيمار فى مجلة "تاريخ المستعمرات" تحت عنوان : "مستشرقو جيش الشرق" فى العدد رقم ١ عام ١٩٢٨.

" ومن أهم رجال السلك الدبلوماسى الفرنسى آنذاك السيد لومير ، قنصل فرنسا فى طرابلس والذى كان أول من أقترح على حكومته بضرورة إرسال بعثة أثرية إلى مصر لكثرة ما بها من خيرات ومخطوطات وآثار يمكن نقلها إلى فرنسا ... وتم تنفيذ هذا الإقتراح بإرسال حملة نابليون " (جان مارى كاريه ، المرجع السابق).

الاستعمار :

وعبارة "استعمار مصر" ليست جزافية وإنما هى عبارة قالها نابليون ومختلف المشتركين معه : " سأستعمر مصر ! سأستعمر مصر وأستورد الفنانين والعمال من جميع الأنواع والنساء والممثلين ...! إن ست سنوات تكفينى للذهاب إلى الهند لو سارت الأمور سيراً طيباً " ! (فى حديثه عن أيام الحملة فى مذكراته من معقل سانت هيلانه) .

أما فى المقارنة التى أجراها بين حملته والحملة الصليبية التاسعة فقال عنها : "إن لويس التاسع أنفق ثمانية أشهر فى الصلاة ، وكان أجدى أن ينفقها فى الزحف والقتال واحتلال البلاد" !!.

بينما كتب مونج ، أحد أعضاء الحملة ومنظم المجمع العلمـى، إلى زوجته : "لو استوطن مصر ٢٠,٠٠٠ أسرة فرنسية ليشتغل أفرادها بالمشروعات التجارية والمؤسسات الصناعية ... إلخ لغدا هذا البلد أجمل مستعمراتنا وألمعها وأفضلها موقعاً" . أما الجنرال ريبو فكتب فى " التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية" قائلاً : " لقد كنا نرابط فى مصر ونحتلها احتلالاً عسكرياً، وعلى الرغم مما بذلناه من الجهود ليقبلنا الشعب كما يتقبل محرريه ، فقد بقيت سلطتنا قائمة على القوة لا على الإقناع ... وكانت سياستنا قائمة على إكراه الشعب على الإذعان لنا بالحزم مرة وبالقوة مرة ، وقمع كل ثورة ، ومكافأة كل من يخدم السلطة الفرنسية " ....

مجازر وإبادة :

وإلى الذين يتشدقون بالمهمة الحضارية والرسالة التحريرية للحملة نقدم بعض المقتطفات التالية وهى بأقلام متعددة ممن ارتكبوا جرائمها : " حين دحر المدافعون على جميع الجوانب ، واحتموا بإلههم ورسولهم فملأوا الجوامع ، ذُبح الرجال والنساء والكبار والصغار، وحتى الأطفال عن بكرة أبيهم . وبعد نحو أربع ساعات هدأت سورة جنودنا فى النهاية " (الجنرال بواييه فى خطاب إلى والديه) .

" ظننا أن المدينة استسلمت ، وأشد ما أدهشنا أن ينهال علينا رصاص البنادق ونحن نمر أمام أحد المساجد ... فأمرنا قائد اتفق وجوده هناك أن نقتحم باب المسجد ولا نبقى على أحد فيه. وهكذا هلك الرجال والنساء والأطفال بحد السنكى " (الطابط ميلية) .

" هناك قرية رفضت إمدادنا بالبضائع التى طلبناها فضرب أهلها بحد السيف وأحرقت بالنار وذبح وأحرق ٩٠٠ رجل وامرأة وطفل ليكونوا عبرة لشعب

همجى نصف متوحش " . (الجندى فرانسوا إلى أهله) .

" وصلنا قرية " نكله " وكانت فرقتا بون وفيال تعملان فيها النهب والسلب وأحدثت صيحات الرجال وولولة النساء ضجيجاً رهيباً " (مذكرات الكولونيل لاجونكيير) .

" كان الجنود يعملون على إخماد الثورة بإطلاق الرصاص على الفلاحين ، وفرضت الغرامات على البلاد ولكن الثورة كانت كحيّة ذات مائة رأس ، كلما أخمدها السيف والنار من ناحية ظهرت فى ناحية أخرى أقوى وأشد مما كانت " (الجنرال ريبو "التاريخ العلمى والحرب للحملة الفرنسية على مصر").

" أصبحت قرية بنى عدى أكواماً من الخرائب ، وتكدس القتلى فى شوارعها ، ولم تقع مجزرة أشد هولاً مما حل ببنى عدى . وقدر الجنرال دافو عدد القتلى من الأهالى بألفى قتيل ، ويقدرهم ديزيه فى تقريره إلى نابليون بنحو ثلاثة آلاف " (مذكرات الجنرال برنييه ، رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية) .

" لقد قمت هذا اليوم بجولة لمعاقبة قرية قتلت بعض الفرنسيين ، فأحرقت القرية وقتلت تسعة من الأهالى ، وسيعتبرون بهذا الدرس كما يعتبر به أهالى وادى النيل " (الجنرال مينو إلى الجنرال كليبر) .

[والطريف أن مينو هذا هو الذى أدعى الإسلام وتزوج بمسلمة وما أن عاد إلى فرنسا حتى قام بتنصير أبنائه وعاد إلى ملته] ! .

" لقد أحرقوا مساكنهم بالنار وقتلوا كل من وجدوه من الشيوخ والنساء والأطفال بحد السيف وفى اليوم التالى كانت دمنهور ركاماً من الأحجار السوداء اختلطت بها أشلاء الجثث ودماء القتلى " (ريبو ، المراجع السالف الذكر) .

" كانت مدينة دمنهور وأهلها هدفاً لانتقام الجنود ، فقد قتلـوا مـن الأهـالى نحو ٢٠٠ أو ٣٠٠ وبعـد ذلـك أمـرت بتسـليم المدينـة لفظـائع النهـب وسـفك الدماء . والآن لم يعـد لدمنهـور وجـود ، وقـد قتـل مـن أهلهـا نحـو ١٢٠٠ أو ١٥٠٠ ماتوا قتلاً أو حرقاً " (الجنرال لانوس فى خطاب إلى الجنرال دوجا) .

" فى كل ليلة نقطع نحو ثلاثين رأساً أكثرها لزعماء الثورة . وفـى اعتقـادى أن هذا درساً نافعاً " (من مراسلات نابليون إلى رينييه) .

" سيق المسجونون إلى القلعة وكنت أتولى فـى مسـاء كـل يـوم كتابـة الأوامـر القاضية بإعدام مـأتى عشـر سـجيناً كـل ليلـة ، وكـانت جثـث القتلـى توضـع فـى زكائب وتغرق فى النيل . واستمر ذلك ليالى عديدة، ومنهم كثير مـن النسـاء ممـن نفذ فيهن أحكام الإعدام الليلية " (مذكرات بوريين سكرتير نابليون الخاص) .

" خف دافو إلى المكان وفى أول مايو قتل ٢٠٠٠ من الفلاحين المسلمين فى بنى سويف، وكانت خسائر الفرنسيين ثمانية رجال ، وهو عمل مجيد بلا ريب " ("لاجو نكير " أحد قادة الحملة) .

وفى دفاتر الميجور ديترو البيان التالى عن مجزرة يافا فى مارس١٧٩٩ :

- فى ٧ مارس مات أثناء الهجوم أكثر من ٢٠٠ تركى
- فى ٨ مارس رمى بالرصاص ٨٠٠ تركى
- وفى ٩ مارس رمى بالرصاص ٦٠٠ تركى
- وفى ١٠ مارس رمى بالرصاص ١٠٤٠تركى
- الجملـــــــــــة ٤٤٤١تركى

اللهم لا تعليق على الاستخفاف حتى فى تدوين مجازرهم - وأن كنا نود توضيح أن عبارة "تركى" كانت سائدة فى اللغة الفرنسية إشارة إلى المسلم أياً كان بلده ! الأمر الذى يكشف إلى أى مدى كانت رهبتهم من الإسلام فتركيا هى التى كانت تحتل السيادة فى أوربا .

وكتب المواطن بيروس إلى أمه عن مجزرة يافا قائلاً :

" إن قيام الجنود الحانقين، بعد اقتحام المدينة والإستيلاء عليها عنوة بأعمال السلب والنهب والتقتيل كيفما اتفق ، أمر تقتضيه قوانين الحرب ، والإنسانية تسدل قناعاً على هذه الفظائع . ولكن صدور الأمر بعد إنقضاء يومين أو ثلاثة على الهجوم ، وبعد أن تهدأ سورة الغضب ، فى وحشية هادئة نقتل ٣٠٠٠ رجل استسلموا لنا بسلامة نيه ! تلك جريمة بشعة ستشجبها الأجيال القادمة ما فى ذلك ريب ... إن نحو ٣٠٠٠ رجل ألقوا سلاحهم ، فسيقوا على الفور إلى معسكرنا ... وفى صباح اليوم التالى سيقوا إلى الشاطىء وبدأت كتيبتان فى رميهم بالرصاص . وكان أملهم الوحيد فى النجاة هو أن يلقوا بأنفسهم فى البحر، ولم يترددوا ... ولم تمضى لحظة حتى إصطبغ ماء البحر بدمائهم وانتشرت جثثهم على سطحه ... ورجونا صادقين ألا تتكرر هذه الجريمة ، وأن يعفى الأسرى الباقون من القتل ... ولكن سرعان ما خاب رجاؤونا حين اقتيد ١٢٠٠ مدنى مسلم فى اليوم التالى ليعدموا ، وكانوا قد تم تجويعهم لمدة يومين أمام خيمة الجنرال بونابرت . وصدرت التعليمات للجنود بألا يسرفوا فى الذخيرة فبلغت بهم الوحشية أن اعملوا فيهم الطعن بالسنكى ... وقد وجدنا بين الضحايا أطفالاً كثيرين تشبثوا وهم يموتون بأبائهم . وسيعلم هذا المثال أعداءنا أنهم لا يستطيعون الركون إلى صدق نية الفرنسيين ، وسيقع دم هؤلاء

الآلاف الثلاثة الضحايا على رؤوسنا إن عاجلاً أو آجلاً "... (وارد فى كتاب لاجونكيير: "نابليون بونابرت") .

وعن السلب والنهب غير ما تقدم نورد :

" ومن المؤن التى استولى عليها الفرنسيون فى يافا ٤٠٠,٠٠٠ جراية من البسكويت و ٢٠٠٠قنطار من الأرز ، وقد نهب الجنود أكثر من هذا كثيراً قبل أن يتمكن القوميسير الإستيلاء عليه. ولكن الأسرى وجب ضربهم بالنار لأنه لم يمكن توفير الطعام لهم " (لاجونكيير) .

" وصلنا يوم ٢٦ سيدور (١٤ يوليو) إلى قرية النجيلة بينما كان جنود الجنرالين بون وفيال ينهبونها وكان صياح الأهالى وبكاء النساء ونحيبهم يصم الآذان " (من يوميات الجنرال لوجيه) .

" صادرنا بعض المواشى التى وجدناها فى طريقنا وبينما كانوا يقيدونها كان الجنود ينهبون هذه القرية ويخربونها . إن فرقتنا لم تكن تعمل سوى إتمام خراب القرى التى كان يمر بها الجيش لأن الفرق التى تتقدمنا لم تترك فيها إلا ما لا يمكن حمله أو تخريبه ، وفى بعض الأحيان كنا نرى النار مشتعلة فى الغيطان قبل حضورنا بحيث لم نكن نعرف كيف نحصل على ما يلزم من التبن والشعير لخيولنا " (من يوميات الكابتن سافارى) .

"أن الجنرال لتورك جمع الخيول والأموال من جميع القرى المجاورة لدمنهور وأنه أرسل إلى الإسكندرية بستين جملاً محملة غلالاً مما صادره من البلاد" (خطاب الجنرال مورا إلى نابليون فى ٤ ديسمبر١٧٩٨) .

أما عن الإسلام :

" الإسلام دين تعتيم يصاحبه الاستبداد أو الفوضى ... الإسلام دين مشئوم حيث أن المبادىء الفاسدة إضافة إلى العقيدة فإنها تحصر الإنسان بين البطولة أو الفسوق ... إن عبارة " الإسلام والعرب" تمثل أسوأ خليط يمكن تصوره لأن دين محمد عبارة عن بضعة وصفات لا يمكنها أن تكفى أمام الجهل الرهيب للعرب ... وعلى الرغم من تبجيلهم الأعمى للقرآن وطاعتهم المطلقة لكل ما قاله نبيهم ، ورغم اللعنة التى تلاحق كل من يبتعد عن ذلك ، فهم لم يفلحوا فى الابتعاد عن الهرطقة ولا عن سحر الوثنية " .

تلك هى بعض العبارات الواردة فى كتاب فيفان ديفون "رحلة فى مصر السفلى والعليا" وكان من رسامى الحملة وتعكس عباراته عن الإسلام ما رضعه الغرب من أكاذيب مستشرقية وفرياتهم وإشعال نار العداء والكراهيه لحث مواطنيهم على مواصلة الحروب الصليبية . ولم يتورع جلادوا هذه الحملة الذين زعموا أن مجيئهم لحماية وتحرير المصريين ، وقد رأينا شذرات من "حمايتهم" للمصرين ، لم يتورع هؤلاء الجلادون عن قتل المشايخ ، ليس إنتقاماً وترويعاً فحسب، وإنما " لوأد النهضة الإسلامية " التى كانت فى طريقها إلى النور – على حد قول محمود شاكر (" رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا") " إذ كان يقتل فى القاهرة وحدها كل يوم خمسة أو سته ، ويأمر أن يطاف برؤوسهم فى شوارع القاهرة ، ويقول : "هذه هى الطريقة الوحيدة لإخضاع هؤلاء الناس، وعليكم أن توجهوا عنايتكم لتجريد البلاد قاطبة من السلاح" وقد أورد الرافعى فى كتاب "تاريخ الحركة القومية" تفاصيل هذه المأساة الدامية . وقد رأينا كيف اقتحموا الجامع الأزهر وكيف هدموا المساجد وها

هم يقطعون رؤوس المشايخ والعلماء ... وكانت هذه هى أول مرة فى التاريخ يُعدم فيها مشايخ الأزهر وعلماؤه كالمجرمين ...

بدأ ضرب الأزهر بالقنابل حوالى الظهر وإستمر إلى المساء ، وأصدر بونابرت أمره إلى الجنرال بون بأن "يبيد كل من فى الجامع" ، بل كانت نيته متجهة إلى هدم الجامع الأزهر إذ أصدر الجنرال برتييه ، رئيس أركان الحرب ، تعليماته ، وهى صادرة إلى الجنرال بون بأمر القائد العام بتاريخ٢٣ أكتوبر بأن " يهدم الجامع الأكبر ليلاً إذا أمكن وترفع الحواجز والأبواب التى كانت تسد الشوارع " .

"وفى نفس ذلك اليوم أصدر نابليون القرار التالى إلى الجنرال برتييه : "تفضل أيها المواطن القائد بأن تأمر قومندان القاهرة بقطع رؤوس جميع المسجونين الذين أمسكوا وبيدهم سلاح. فليؤخذوا إلى شاطىء النيل بعد هبوط الظلام ولتلق جثثهم المقطوعة الرؤوس فى النهر" .

" وفضلاً عن هؤلاء المسجونين أعدم فى القلعة ثمانون عضواً من " ديوان الدفاع" الذى تزعم الثورة ، وهكذا نجد جهراً بالعفو عن الأبرياء وإعدام للمعارضين فى الخفاء وتحت جنح الظلام " (كريستوفر هيرولد : " بونابرت فى مصر") .

" وتم قطع رؤوس ستة من المشايخ الذين اتهموا بقيادة الثورة ... بل قاموا بإعدام شيخ طائفة العميان بتهمة القيام بعمل مسلح ضد المدفعية الفرنسية ".

و "منذ الحملة الفرنسية على مصر لم يعد لفرنسا أى وجود عسكرى إلا أنها قد استطاعت من خلال لجنة العلوم والفنون والمجمع العلمى أن تبذل قصارى جهدها لإدارة أعمالها السياسية والاقتصادية فى مصر على أكمل وجه" (جاك بانفيل : " الحملة الفرنسية على مصر") ومن الواضح أن هذا

النص يرجع إلى ما قبل عام١٩٥٦ والعدوان الثلاثى على مصر ! .

" كانت المهمة الأساسية للمستشرقين المرافقين للحملة الفرنسية القيام بحلقة الوصل بين الشعب والسلطات الفرنسية وترجمة بيانات مجلس القيادة إلى العربية كما كان عليهم القيام بالترجمة الفورية " ... (جان مارى كاريه : "رحاله وأدباء فرنسيين فى مصر").

وعن"أفضال" هذه الحملة فى مجال التحديث والتنوير يقول جاك بانفيل : "إن تحديث مصر أصبح الهدف المعلن ، وكان عليه أن يحكم مصر بأسلوب "الحماية" بمساهمة السلطات التقليدية والدينية ، وذلك بمواصلة أسلوب لم يتغير : الحرب ضد المماليك ، الارتباط بالأقباط واستخدامهم كعملاء إداريين وجامعين للضرائب ، وعدم المساس بالسلطة الأسمية للباب العالى ، والتوجه إلى العرب بشىء من التبجيل " .

ذلك هو الدور الفعلى للحملة ونشاطاتها الثقافية والعلمية التى لم يتم القيام بها أصلاً إلا لخدمة المصالح الإستعمارية الصليبية الفرنسية .

ولقد غادر نابليون الشرق مهزوماً ، فلم يتمكن من الإستيلاء على عكا وترك البحر الأبيض المتوسط فى أيدى الانجليز بعد تحطيم البحرية الفرنسية فى أبى قير ، كما لم تتمكن جيوشه من القضاء لا على المماليك ولا على المقاومة المصرية وفر هارباً كاللصوص فى جنح الليل ... ففى ٢٣ أغسطس ١٧٧٩ أبحر نابليون من مصر بعد أن أمضى بها أربعة عشر شهراً من المجازر والتدمير ، فى محاولة غاشمة لإقتلاع الإسلام وطمس معالمه ... وفى التاسع من أكتوبر وصل إلى مدينة فريجوس على الحدود الإيطالية الفرنسية ، إلى تلك المدينة التى أبحر منها قبل ثمانية قرون الملك لويس التاسع فى حملة مماثلة ... تلك الحملة

الصليبية التى قادها عام١٢٤٩ بزعم تحرير فلسطين من سلطان مصر ، لكنه انهزم فى المنصورة عام١٢٥٠ وسجن بها ...

وكأن نابليون بذهابه إلى تلك البلدة التى ليست بميناء ، وإنما تقع على الحدود الإيطالية بين مدينتى نيس وطولون ، قد راح ليقدم تقريره عن الحملة الصليبية التى قادها ، وليستودع شعلتها ، التى ما زالت متقدة ، لمن يواصلون حروبها من بعده ... وكان قد قادها بنفس الزعم : تحرير مصر من نير الأتراك!! فهل بعد كل ما تقدم ، وهى جد قطرات ضئيلة من بحر لجىّ ، يفكر البعض فى الاحتفال بحملة لم تكن إلا عدواناً على الحضارة الإسلامية وعلى شعوبها ؟ عدواناً خسيساً أستخدمت فيه كافة أساليب الغش والخداع والجبن الرخيص فى قتل الأبرياء ليلاً ؟!.

فبدلاً من الاحتفال بهذه الحملة الصليبية الإستعمارية على مصر ، الأمر الذى يعد خيانة بكل المقاييس ، خيانة للوطن ولدم الشهداء وللتاريخ ... وبدلاً من تزييف التاريخ وتحريفه ، بل وبدلاً من أن يسخر منا صانعوا تلك المجازر وذلك الخراب الأسود ، أليس من الأكرم لنا أن نوقف هذه المهانة المبتذلة ، المفروضة علينا ، ونتمسك بديننا وهويتنا وتراثنا ونطالب السلطات الفرنسية بالتعويض عما ألحقته بنا من بلاء ؟! نعم علينا أن نطالبها بالتعويض عن نفقات تلك المجزرة المدمرة والتى تمت على حسابنا والوثائق تشهد بذلك ، وتعويضنا عما دمروه فى البلاد وما سلبوه ، وتعويض دم الشهداء ، وإعادة ما سرقوه من آثار مصرية وقبطية وإسلامية ومخطوطات ونفائس . أليس ذلك ما تتبعه مع ضحاياها الآخرين ، أم أن العدل والمساواة اللذان تتغنى بهما لهما معياران ومقياسان ؟!

"الهدف الاستعمارى للحملة الفرنسية على مصر"
"والسياسة الإسلامية لبونابرت"

على الرغم من كل ما نشره أولئك المنتمون إلى بلدهم ودينهم من كتابات ووثائق تدين بدعة – إن لم تكن صفاقة – الاحتفال بالحملة الفرنسية على مصر، فما زلنا نطالع أصوات بعض المدافعين عن هذه الجريمة التاريخية التى تعد من أكبر الكوارث التى أصابت مصر فى العصر الحديث ، إن لم تكن أكبرها على الإطلاق ؛ لأنها قد استباحت البلاد للتغريب والنهب من جهة ، كما قامت من جهة أخرى باجتثاث الصحوة الإسلامية التى كان الأزهر يتزعمها ، فسحقتها بجبروت أعمى ، ودنست الأزهر الشريف واجتزت رؤوس مشايخه وعلمائه وطلابه فى سابقة تعد الأولى من نوعها فى تاريخ بلدنا .

وإلى حفنة الخارجين عن أبسط روابط الانتماء والغيرة لدينهم وبلدهم ودماء شهدائه نقدم بعض المقتطفات من مقالين للكاتب الفرنسى فرنسوا شارل–رو François Charles-Roux ، وهو من مؤرخى الحملة وواحد من المدافعين عنها . والمقال الأول بعنوان : "الهدف الاستعمارى للحملة الفرنسية على مصر" . وقد نشر فى مجلة الدراسات النابليونية" المجلد الثانى والعشرين ، السنة الثالثة عشرة يناير – يونيو ١٩٢٤ ؛ والمقال الثانى بعنوان : "السياسة الإسلامية لبونابرت" ، وقد نشر فى نفس المجلة التاريخية المتخصصة ، فى السنة الرابعة عشرة ، المجلد الرابع والعشرين يناير – يونيو ١٩٢٥ ويقع فى ٢٥ صفحة .

ومع مراعاة أن المؤرخ فرنسوا شارل -رو من المدافعين عن نابليون وحملاته الدامية ، إلا أن الحقائق التى يوردها دامغة بذاتها ، ولعلها تعيد بعض الحياء إلى دماء شرذمة المدافعين عن هذه المجزرة التاريخية ..

بعد التقديم لهذه الحملة -التى احتل طواها الفرنسيون هذا البلد وحكموه- يبدأ فرنسوا شارل-رو بتناول الإعداد لها فى المقال الخاص بالهدف الاستعمارى فكتب قائلاً :

وعنوانه الفرعى هو : "إعداد ورحيل لجنة العلوم والفنون - ١٧٩٨" ويقع فى ١٨ صفحة .

"ففى الحادى والثانى عشر من فنتوز العام السادس (الأول والثانى من مارس عام ١٧٩٨) ، وعلى مدى جلستين ضربت السرية المطلقة على محاضرهما قامت الإدارة التنفيذية للجمهورية الفرنسية باتخاذ قرار بتأجيل مشروع إنزال قواتها على السواحل البريطانية ، كما أقرت مبدأ إرسال حملة إلى مصر أسندت قيادتها إلى الجنرال بونابرت .

"وهذا القرار المفاجىء وغير المتوقع ، من جانب الفرنسيين ومن جانب الأعداء على السواء، لم يكن فى الواقع إلا التنفيذ المتأخر لمشروع تم وضعه من فترة بعيدة وتم عرضه عدة مرات سواء أيام الملكية البائدة أم على عهد الحكومة الجمهورية[1] . وهذا المشروع الذى كانت أهميته السياسية المباشرة والملحة قد دفعت حكومة الإدارة إلى تبنيه وإنجازه ، لم يكن مجرد عملية حربية أو مناورة استراتيجية واسعة المدى : لقد كان عملية سياسية واقتصادية

(١) راجع : "جذور الحملة الفرنسية على مصر" بقلم فرنسوا شارل -رو ، باريس ، بلون ١٩١٠ وكتاب "انجلترا ، قناة السويس ومصر فى القرن الثامن عشر" لنفس المؤلف ، باريس ، بلون ١٩٢٢.

وعسكرية فى آن واحد . بل لقد كان مشروعاً حقيقياً لإنشاء مستعمرة .

"ولقد وصلته هذه الفكرة عن طريق مذكرة تقدم بها تاليران Talleyrand ، الذى كان – بما لا يدع مجالاً للشك – على دراية واسعة بالمبادرات الأولى الأساسية المتعلقة بمصر ، وملماً تماماً بالرغبة البعيدة المدى للاستحواذ على هذا البلد ومشروع غزوه وضمه . وكانت هذه المذكرة المحتوية على المشاريع والخطط والمراسلات التى جمعها تاليران[1] ، تعرض فكرة موضوع الحملة الفرنسية على مصر للمسئولين بالإدارة كمشروع إقامة مستعمرة ذى فائدة مزدوجة لصالح الشعب المستَعْمِر والبلد الذى سيُستَعْمَر :

"لقد كانت مصر سابقاً مقاطعة من مقاطعات الجمهورية الرومانية ، ويجب أن تصبح مقاطعة للجمهورية الفرنسية . لقد كان غزو الرومان يمثل مرحلة الاضمحلال لهذا البلد الجميل : وسيكون الغزو الفرنسى مرحلة ازدهاره . فلقد قام الرومان بنهب مصر من أيدى ملوك اشتهروا بالفنون والعلوم... والفرنسيون سيستولون عليها من أيدى أبشع طغاة وجدوا على الإطلاق"[2] .

وبعد هذه الفقرة التى أوردها فرنسوا شارل –رو من التقرير المرفوع إلى تاليران ، يواصل مقاله قائلاً : " كما أنهم سيقومون بإنعاش الزراعة والصناعة والتجارة ، وسيعيدون فتح التبادلات مع أوربا والهند القديمة عن طريق السويس وبذلك سيقومون بعمل ثورة حقيقية فى الحياة الاقتصادية لشعوب الغرب ، كما سيزودون فرنسا بتعويض فقدها المؤكد إن عاجلا أو آجلاً –

---

(١) خاصة من المذكرة التفصيلية التى رفعها إليه مجالون القنصل العام لفرنسا فى مصر ، منذ بضعة أيام .

(٢) راجع نص هذه المذكرة فى "الحملة على مصر" بقلم س.دى لاجونكيير ، المجلد الأول ، باريس شارل لافوزيل .

للمستعمرات الأمريكية . إن العمل على جعل مصر تابعة لفرنسا وإحياء مشعل الحضارة الذى انطفأ فيها ، وإعادة الرخاء بسحق البربرية الطاغيه هو تحديداً هدف الحملة على مصر فى الوثيقة التى قامت الإدارة بدراستها واتخاذ القرار بشأنها .

"وفيما بعد ، بعد الجلاء عنها ، عندما قام أحد الأعضاء المدنيين لبونابرت بكتابة المقدمة التاريخية الرائعة "وصف مصر"[1] . التى تكفى وحدها بتخليد ذكرى الحملة الفرنسية على مصر ، كتب فوريه Fourier قائلاً : إنه قد ساهم فى هذه الحملة من نفس منطلق الأهداف الاستعمارية والإحياء الاقتصادى والعمل الحضارى . وإلى جانب الأهداف السياسية التى أدت إلى اتخاذ قرار قيام هذه الحملة – وهى إصابة انجلترا ومعاقبة بكوات المماليك لتنكيدهم على التجار الفرنسيين – يضيف فوريه قائلاً : "مع ضرورة الأخذ فى الاعتبار بالمزايا الناجمة عن الاستقرار الدائم" . ويوضح فرنسوا شارل –رو هذه المزايا قائلاً : "وهذه المزايا كانت فرنسا ستحصل عليها من الزراعات التى كانت تمارس فى مصر كالقمح والحبوب والأرز ومختلف الفواكه ، ومن تلك المحاصيل الأكثر فائدة –والتى سيؤدى إليها إدخال نظام لاستخدام مياه النيل بشكل أفضل–: قصب السكر والكتان والنيلة وتصدير المنتجات التى تحصل عليها مصر من الخارج كالقهوة والعطور من شبه الجزيرة العربية وبودرة الذهب والعاج ومنتجات أخرى قادمة من أفريقيا ، وبضائع من الهند ، واستيراد المنتجات التى تنقص مصر والتى تقوم بها الصناعة الفرنسية كالمنسوجات

(١) لقد بدأت طباعة "وصف مصر" عام ١٨٠٩ وانتهت عام ١٨٢٥ . وتتضمن أول طبعة ٩ أجزاء من القطع الكبير من النصوص و ١٤ جزءا من اللوحات والخرائط والتصميمات والحفر.

والنبيذ والحديد والرصاص والخشب إلخ ... إن الاستغلال العقلانى لهذه الموارد المتعددة سيتطلب أعمالاً ستؤدى إلى ازدياد ثروة البلد ومنها أعمال الرى بالنسبة للزراعة ، وبالنسبة للتجارة ، ربط البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر عن طريق قناة صالحة للملاحة . كما سيتم إقامة أو توسيع علاقات تجارية مع شبه الجزيرة العربية وفارس والهندوستان وأفريقيا . إن قارة أفريقيا ستفتح للاستغلال .. وما أن تزدهر وتتجدد بفضل حكومة عاقلة ومستنيرة فإن مصر سوف تشع على كافة البلدان المحيطة بها" .

وبعد أن أوضح المؤرخ الفرنسى الجانب السياسى الاستعمارى للحملة ينتقل إلى "لجنة العلوم والفنون" التى اصطحبها نابليون معه لنهب وسرقة النفائس والآثار لإثراء متاحف فرنسا .. "إن عظمة مصر الماضية وازدهار حضارتها القديمة ، والقيمة الفنية والأهمية التاريخية لآثارها التى مازالت تشهد على ذلك ، كانت موضوعات تثير خيال بونابرت بشدة إلى جانب كونها موضوعات يألفها . فلم تكن بعيدة عن الانجذاب الذى يشعر به تجاه وادى النيل . وقد كان يرى فيها وسيلة لازدياد مجد الحملة بإضافة اكتشافات مفيدة للفن والعلم إلى جانب الأهمية السياسية للحملة التى سيطرت على فكره وحلم بها وناقشها عند لقائه مع تاليران عند قرب انتهاء الحملة على إيطاليا . فمنذ هذه الحملة على أى حال قد بدأت فكرة استخدام الحروب فى إثراء التراث الفنى والعلمى لفرنسا وإن كان بصورة متواضعة فى البداية ، وذلك عن طريق إنشاء "لجنة العلوم والفنون" التى كان مونج Monge عضواً بها . ولقد كانت مهمة مونج فى إيطاليا هى اختيار القطع الفنية التى ستزين متاحف فرنسا(...).

"وهكذا توصل – عند ميله إلى شن حملة على مصر ، وفور أن تقرر ذلك بالفعل – إلى إضفاء الهدف العلمي والفني عليها ، وأن يزود الجيش بلجنة العلوم والفنون حيث كانت كافة التخصصات ممثلة بها" .

ثم يتساءل فرنسوا شارل –رو قائلاً : " ترى ما كانت مهمة هذه اللجنة؟" ويسارع بالرد في نفس السطر قائلاً : "أولاً وقبل أى شيء مساعدة الجيش ووضع العلم في خدمة الحرب والحكومة ، والإسهام في تنظيم وإدارة البلد الذى تم غزوه ؛ وإلى جانب ذلك ، على حد قول أحد الذين ساهموا فيها"[1]: "إدخال فنون أوربا إلى شعب نصف همجي ونصف متحضر ، بلا صناعة وبلا تنوير علمى" ؛ وأخيراً الكشف لأوربا عن مصر القديمة ، ومصر آنذاك ، مصر الفراعنة واليونان والرومان ومصر المماليك" .

وقبل أن يتناول المؤرخ أعضاء "لجنة العلوم والفنون" وكيفية اختيارهم ، وخاصة مونج ، رئيس هذه اللجنة ، نراه يكشف عن جانب آخر لهذه الحملة المشئومة على مصر ، ألا وهو جانب التنصير . فحتى قبل أن يصدر القرار الرسمى ببدء الإعداد للحملة ، كان نابليون "قد اختار وعين مونج وأرسله إلى الفاتيكان ، قبل ذلك بقليل ، ليأخذ من هناك ، من لجنة التنصير، مطابع اللغات اليونانية والعربية والسريانية بكامل هيئتها من معدات وأحرف وعمال، إضافة إلى الخرائط والكتب والوثائق" (...) .

"وكان بونابرت يود فعلاً أن تضم اللجنة كافة التخصصات التى يمكنها أن تفيد في الأعمال العلمية والفنية والأدبية . بل لقد تمادى في طموحاته بأنه كان يريد من هذه اللجنة أن تقدم للجيش وللمستعمرة التى كان يزمع

(١) جومار : "ملاحظات حول كونتيه" باريس ١٨٤٦ .

إنشاءها كافة الموارد التى تلطف وتجمل الحياة . وكم تمنى أن يصطحب الشاعر ديليل Delille ، والموسيقى ميهول Méhul ، والمغنى لوا Loy . وبدلاً من ديليل المتقدم فى السن ، وميهول المحب للبقاء فى المنزل ، ولوا الذى خشى أن يصاب بالرشح ، فقد اصطحب بونابرت كل من بارسيفال جرانميزون Parseval-Grandmaison ، وريجيل Riguel وفيللوتو Villoteau الذى كان البديل الاحتياطى للوا فى الأوبرا . أما الأكاديمى أرنو Arnaud الذى اضطر إلى التوقف فى مالطة ، فقد كان يعوض ما ينقص بارسيفال ليمثل مجال الأدب"...

ويختتم فرنسوا شارل-رو مقاله بذلك القرار الذى ظل "سرى للغاية" لفترة ما والذى كان يعلن ويحدد الهدف والغرض من المهمة المسندة إلى نابليون قائلاً: "إن القائد الأعلى لجيش الشرق كما يوضح القرار فى المادة ٣ سوف يشق قناة السويس ويتخذ الإجراءات الضرورية لتأكيد الملكية التامة للبحر الأحمر وتبعيته للجمهورية الفرنسية" ؛ وفى المادة التالية نطالع : "وسوف يقوم بتحسين حال المصريين بكافة الوسائل التى تحت سلطته" وكانت هذه الإشارة الدقيقة فى نقطة واحدة والعامة فيما يتعلق بالباقى ، هى تحديد المهمة السياسية والمدنية التى كان على لجنة العلوم والفنون أن تساهم فيها" .

ولا داعى لتوضيح معنى "الوسائل" التى كانت تحت سلطة نابليون من سيوف وبنادق ومدافع .. تلك الوسائل التى قام بواسطتها "بتحسين" حال المصريين بحش رؤوسهم واغتصاب نسائهم وأطفالهم وبقربطونهم والتنكيل بجثثهم ، وحرق قراهم ومحاصيلهم ، وسلب ونهب كل ماديهم.

وأما المقال الثانى والخاص بالسياسة الإسلامية لبونابرت ، فنكتفى بنقل أول فقرة والتى يستشهد فيها المؤرخ بنابليون حينما كتب قائلاً : "إن السياسات

التى كانت أفضل ما لاحظت من مهارة الشعوب المصرية هى تلك التى اعتبرت أن الدين هو العقبة الأساسية لاستقرار السلطات الفرنسية . فقد كتب فولنيه Volney قائلاً عام ١٧٨٨ : لكى تستقر فى مصر لابد لك من شن ثلاثة حروب: الأولى ضد انجلترا ، والثانية ضد الباب العالى والثالثة – وهى أصعبهم جميعاً – ضد المسلمين الذين يكونون غالبية شعب ذلك البلد" .

ومنذ اللحظات الأولى من غزوه لأرض مصر بدء نابليون بالمخادعة والغدر والتحايل .. وينهى فرنسوا شارل– رو مقاله هذا قائلاً :

"فلم يكن إلا لمثل بونابرت أن يعطى منذ أول لحظة احتكاك بين فرنسا وشمال أفريقيا ومع الإسلام ، أكمل النماذج لإدارة محلية وسياسية ودينية جديدة تماما ومدفوعة إجمالاً إلى أقصى حدود تم تحقيقها آنذاك . وعلى أى حال لم يتخطاها أحد . إلا أن الإخضاع والتحالف اللذان كانت تهدف إليهما هذه السياسة المحلية والدينية ، كانا هما نفسهما يهدفان إلى إمكانية تحقيق الهدف الاستعمارى الذى كان مسنداً إلى الحملة الفرنسية ، فى الظروف الأمنية المطلوبة وكذلك الاستقرار . غير أن تنفيذ نفس هذا المخطط ، الذى ساندته على التوالى حيوية بونابرت ونشاطه ، لم يمكنه أن يؤثر بدوره على استعدادات الأهالى تجاه السيطرة الفرنسية" .

وإذا ما اختصرنا ما تقدم من معطيات بقلم أحد مؤرخى الحملة الفرنسية ، واستخلصنا أهم عباراتها لوجدنا أن الحملة الفرنسية على مصر كانت "احتلالاً" و"استعماراً" ، وأنها عبارة عن عملية سياسية واقتصادية وعسكرية ، بل مشروعاً حقيقياً لإنشاء مستعمرة ، وعمل ثورة حقيقية فى الحياة الاقتصادية لشعوب الغرب وتعويض فرنسا فقدانها المستعمرات الأمريكية ،

وأن هدف الحملة هو : العمل على جعل مصر تابعة لفرنسا : وأن فورييه قد ساهم فى ذلك ففى كتاب "وصف مصر" الذى تتغنى به تلك الشرذمة وتتخذه ذريعة للاحتفال ، كتب قائلاً فى مقدمته : إنه ساهم فى هذا العمل من نفس منطلق الأهداف الاستعمارية والإحياء الاقتصادى بالاستغلال العقلانى لمواردها. كما يحدد فرنسوا شارل-رو أنه منذ هذه الحملة قد بدأت فكرة استخدام الحرب فى إثراء التراث الفنى والعلمى لفرنسا عن طريق "لجنة العلوم والفنون" التى كانت مهمتها بالتحديد : مساعدة الجيش ووضع العلم فى خدمة الحرب والحكومة ، والإسهام فى تنظيم وإدارة البلد الذى تم غزوه ، إلى جانب إدخال فنون أوربا إلى شعب همجى وبلا تنوير - الأمر الذى يعنى بداية فرض عملية التغريب واقتلاع الجذور والتراث . كما يكشف نفس المؤرخ حقيقة تلك المطبعة المزعومة التى تتغنى بها تلك الشرذمة وأنه قد أتى بها نابليون من الفاتيكان ومن لجنة التنصير وبكل ما تتطلبه من عتاد ومعدات . ذلك لأن الدين الإسلامى هو العقبة الإسلامية لاستقرار السلطات الفرنسية فى مصر ! كما كان من ضمن أهداف هذه الحملة المشئومة شق قناة السويس وتأكيد ملكيتها التامة وتبعيتها للجمهورية الفرنسية . وأنكت ما يختتم به ذلك المؤرخ مقالته هو اعتبار المجازر الهمجية التى قام بها نابليون فى مصر وعكا من أكمل النماذج لتحقيق الهدف الاستعمارى المسند إلى الحملة الفرنسية !!

فهل بعد كل هذه الحقائق الشديدة الوضوح والصراحة يحق لأى مخلوق كان وأيا كانت درجة انتمائه للغرب وتواطؤه معه أن يدافع عن الاحتفال بهذا الاستعمار الوقح المتعدد الأوجه ؟! ...

الهدف الاستعمارى للحملة الفرنسية على مصر
إعداد ورحيل لجنة العلوم والفنون
(١٧٩٨)

مجلة الدراسات النابليونية
المجلد الثانى والعشرون ، السنة الثالثة عشر
يناير – يونيو ١٩٢٤

إن الحملة التى قادها بونابرت على مصر كانت ، بالنسبة لهذا البلد ، نقطة انطلاق لعصر جديد ، وأساساً لصحوته . ويرجع شرف إطلاق الشرارة الأولى إلى فرنسا . ولقد شهدت السنوات الأربع ، التى احتل طوالها الفرنسيون هذا البلد وحكموه ، إنجازَ جهودٍ فى المجال السياسى والإدارى والعلمى تستحق كثافتها ، ومنهجها ونتائجها أن تحظى بالدارسة بعيداً عن الأحداث العسكرية وأن تسلط عليها الأضواء [١] .

* * *

ولقد بدأ الإعداد فوراً للحملة بقيادة بونابرت بنشاط لا يعرف الكلل ، وإن ظل المكان الذى ستتجه إليه محاطاً بسرّية مطلقة ، إلا أن هذه الإعدادات كانت تؤكد فى نفس الوقت طابعها المرّكب المتعدد الملامح ، فهو طابع مدنى وعسكرى وعلمى واستعمارى فى آن واحد .

---

(١) نزعم دراسة جزء منها على الأقل فى بحث حول " بونابرت وسكان مصر " .

ولتحقيق البرنامج الاقتصادى الذى ارتجله تاليران فى مذكرته ،كانت هنـاك حاجة ماسة إلى كفاءات تقنيـة لم يكـن العسـكريون بقـادرين عليهـا لانشـغالهم بمتطلبـات الحملـة العسـكرية وإلى جـانب الموضوعـات التـى أشـار إليهـا وزيـر العلاقات الخارجية فى تقريره أضيف إليها هدف أكثر رقياً وغير ذى مطمع .

إن عظمة مصر الماضية وازدهار حضارتها القديمة ، والقيمة الفنية والأهميـة التاريخية لآثارها التى ما زالت تشهد على ذلك ، كانت موضوعات تثير خيـال بونابرت بشـدة إلى جـانب كونهـا موضوعـات يألفهـا . فلـم تكـن بعيـدة عـن الانجذاب الذى يشعر به تجاه وادى النيل .وقد كان يرى فيهـا وسـيلة لازديـاد مجد الحملة بإضافة اكتشافات مفيدة للفن والعلم إلى جـانب الأهميـة السياسـية للحملة التى سيطرت على فكره وحلم بها وناقشها عند لقائه مع تالـيران عنـد قرب انتهاء الحملة على إيطاليا . فمنذ هذه الحملة على أى حال ، بدأت فكرة استخدام الحرب فى اثراء التراث الفنـى والعلمـى لفرنسـا ، وإن كـان بصـورة متواضعة فى البداية ، وذلك عن طريق إنشاء "لجنة العلوم والفنون" التـى كـان مونج عضواً بها . ولقد كانت مهمة مونج فى إيطاليا هى اختيار القطـع الفنيـة التى ستزيّن متاحف فرنسا ، وقد سمع آنذاك تلميحاً عـن نيـة بونـابرت لتوجيـه أسلحته إلى مصر . وقد تلقى منه مهمة جمع المعلومات عـن هـذا البلـد الـذى كان ربما قد ساهم فى توجيه أفكار الجنرال إليه . ويمكننا افتراض أن ثقافته قـد أكدت فكـرة بونـابرت مـن أنـه توجـد علـى ضفـاف النيـل كنـوز فنيـة يتعيّـن اكتشافها وهناك أعمال كـبرى يتعـين تنفيذهـا . ومـا أن تم توقيـع الصلـح فـى إيطاليا حتى عاد مونج إلى باريس هو وبرتييه Berthier وقد أسند إليـه بونـابرت مهمة توصيل اتفاقية كامبو – فورميـو إلى الإدارة لاعتمادهـا . وكـان مـا زال هنـاك ، فـى الخـامس مـن ديسـمبر عـام ١٧٩٧ ، حينمـا عـاد بطـل آركـول

وريفولى منتصراً إلى منزله بشارع شانترين الذى تغير اسمه تكريماً له إلى شارع النصر . وقد كان هو وبرتوليه Bertholet ولابلاس Laplace ولاجرانج Lagrange من العلماء الذين أحاط بهم الجنرال نفسه ليتحدث في الرياضيات والفيزياء والكيمياء . وبعد ذلك بقليل، تم تعيين بونابرت في أكاديمية العلوم ، في المقعد الذى خلا بنفى كارنو Carnot . وقد اغتبط بهذا التكريم حتى أنه ذهب لحضور الجلسة مرتدياً بدلة الأكاديمية التى صممها له الفنان دافيد David . وبعد قليل بدأ يوقع قرارته وقد ألحق باسمه لقب عضو المجمع الوطنى قبل لقبه العسكرى . وذلك يدل على مدى الأهمية التى كان يضفيها على وجوده برفقة رجال العلم .

وهكذا توصل ، عند ميله إلى شن حملة على مصر وفور أن تقرر ذلك بالفعل ، إلى إضفاء الهدف العلمى والفنى عليها ، وأن يزود الجيش بلجنة العلوم والفنون حيث كانت كافة التخصصات ممثلة بها . ترى ما كانت مهمة هذه اللجنة ؟ أولا وقبل أى شئ مساعدة الجيش ووضع العلم فى خدمة الحرب والحكومة ، والإسهام فى تنظيم وإدارة البلد الذى تم غزوه ، وإلى جانب ذلك ، على حد قول أحد الذين ساهموا فيها [1] : "إدخال فنون أوربا إلى شعب نصف همجى ونصف متحضر ، بلا صناعة وبلا تنوير علمى" : وأخيراً الكشف لأوربا عن مصر القديمة ، ومصر آنذاك ، مصر الفراعنة واليونان والرومان ومصر المماليك .

* * *

(١) جومار : " ملاحظات حول كونتيه " باريس ، ١٨٤٩ .

وابتداء من ٢٦ فنتوز العام السادس (١٦ مارس ١٧٩٨) صدر مرسوماً من الإدارة إلى وزير الداخلية " ليضع تحت تصرف الجنرال بونابرت المهندسين والفنانين والمرءوسين الآخرين بوزارته وكذلك المعدات المختلفة " التى قد يطلبها الجنرال لخدمة الحملة المسؤول عنها [1] . وبونابرت ، الذى صدر من أجله هذا المرسوم، لم يكن قد انتظر إتمام هذا الإجراء ليختار بنفسه ويعيّن قادة أعضاء مجلس القيادة العلمى ، إذ أنه كان قد اختار وعيّن مونج وأرسله إلى الفاتيكان ، قبل ذلك بقليل ، ليأخذ من هناك ، من لجنة التنصير مطابع اللغات اليونانية والعربية والسريانية بكامل هيئتها من معدات وأحرف وعمال ، إضافة إلى الخرائط والكتب والوثائق المتعلقة بمصر إن وُجدت . وفى تلك الفترة ذكره صديقه المتسلط برغبته التى كان قد أعرب له عنها فيما مضى . ففى ٢٥ فنتوز (١٥مارس) وقبل أن توقع الإدارة على وثيقة مولد لجنة العلوم والفنون بعدة أيام ، كان مونج يكتب من روما إلى بونابرت ليثنيه عن اصطحابه معه إلى مصر:

"إنك تريد بصورة مطلقة ، يا عزيزى الجنرال ، أن أقوم بالمغامرة فى مثل سنى . فإن كنت أكثر شباباً لما وجدت عرضاً أفضل من أن أقوم بالخدمة تحت أوامرك وأن أساهم بإمكانياتى المتواضعة فى الخير الذى تتطلع إلى عمله لوطننا وللعالم أجمع، إلا أننى مطلوب فى باريس لمهمه يمكننى القيام بها ولا يستطيع غيرى إنجازها ، كما أننى سأترك فى باريس سيدة لم تعد شابة وستكون بمفردها ولا يحق لى أن أتعسها والتى لم يعد الأمل ، الذى يجعلها تتحمل العديد من الآلام ، بذى معنى .

(١) يوجد نص هذا المرسوم فى " يوميات وذكريات حول الحملة على مصر " بقلم ا . فيليب دى تراج باريس ، دار نشر بلون ، ١٨٩٩ .

رجاء تركى مع الباقين أعجب بملكاتك وأُقَدِّر خدماتك وأتغنى بمجدك "[1] .

إلا أن مقاومة بونابرت لم تكن بالأمر الهيّن ، وكان من المحال بالنسبة لمونج ، وهو أول من عرف بمشاريعه المتعلقة بمصر ، أن يرفض الذهاب معه ! وبعد شئ من التردد اضطر مونج إلى أن يعد الجنرال بأنه سيرحل معه – وكان ذلك بعد تهديد بونابرت له بأنه سيعود من إيطاليا لكى يصطحبه [2] !

أما برتوليه ، وكان لا ينفصل عن مونج ، وهو أيضاً من رواد شارع شانترين، فكان اختيار بونابرت قد وقع عليه منذ البداية إذ أنه تعرف إليه وقَدَّر شأنه عندما كان فى إيطاليا وكان قد طلب منه دروساً فى الكيمياء ، وكان برتوليه قد اشتهر بأعماله القيمة حول الكلور ، والنشادر ، والصبغات ، إضافة إلى كونه عضواً بأكاديمية العلوم وهو فى الثالثة والثلاثين وكان مثل صديقه مونج قد وضع علمه فى خدمة الدفاع الوطنى أيام حرب الثورة . وبينما كان مونج يقوم بإنشاء مسابك المدافع ويكتب بحثاً عن فن تصنيع هذه الآلات كان برتوليه قد بحث واستطاع أن يتوصل إلى أنواع جديدة من المتفجرات وأشرف على تصنيع البارود ، فكانت خدماته وإمكانياته تؤهله ليشارك فى الحملة التى يتم الإعداد لها .

أى أن برتوليه ومونج كانا أول نواة للجنة المقبلة . وسرعان ما التف حولهما كوكبة لا مثيل لها من المهندسين المدنيين والمعماريين والميكانيكية والعلماء فى مختلف المجالات ، والفنانين والأدباء وعمال الطباعة . وبدأت

(١) وارد فى لاجونكير ، المرجع السابق الذكر ، المجلد الأول ، صفحة ٣٢٢.

(٢) خطاب من بونابرت إلى مونج ، ١٣ جرمنيال ، ٢ إبريل . راجع لاجونكير المرجع السابق الذكر ، المجلد الأول ص٣٢٥ .

عملية الاختيار فور موافقة الإدارة على مبادرة بونابرت ، وتمت تحت إشراف القائد العام سواء بمعرفته شخصياً أو بواسطة آوائل من كان قد اختارهم . فتولى برتوليه مهمة تعيين جزء من العلماء ، أما الجنرال كفارللى دوفالجا Caffarelli-Dufalga وكان تابعاً لجيش العبقرى الذى عينه لتولى إدارة اللجنة العلمية الفنية ، فقد وقعت عليه مهمة ترشيح وبحث واختيار طلبات الالتحاق[1] .

وكان فورييه من آوائل من وقع عليهم الاختيار ، فهو مهندس مساحة ذائع الصيت ، وأستاذ فى كلية الهندسة . وقد اهتم بتجنيد العديد من زملائه وتلاميذه القدامى وتلاميذه الحاليين ليكون جبهة من المهندسين المدنيين . وسرعان ما انتشر خبر أن الحكومة تبحث عن تقنيين للاشتراك فى حملة بعيدة ظل مكانها سراً غامضاً وانهالت الطلبات تلقائياً ، وهكذا تقدم تطوعاً فيلييه دى تراج Villiers du Terrage وصديقه دى بوا إيميه Du Bois Aimé ، وكلاهما من كلية الهندسة [2] . كما ساهمت مختلف مؤسسات الدولة من مراكز ومدارس عليا ، ووزارات المناجم، والطرق والكبارى ، وكونسيرفاتوار الفنون والحرف ، والغازات ، ومتحف العلوم الطبيعية ، والمرصد ، ساهمت كلها بما لديها من فنيين . ولعل ترشيح الجيولوجى الشهير دولوميو Dolomieu قد تم بواسطة بونابرت شخصياً إذا أنه كان قد تعب من مغامرات حياته ، ولم يقبل

---

(١) فيما يتعلق بكل ما يخص تكوين وأعمال لجنة العلوم والفنون راجع الفصول الشديدة الأهمية التى خصصها ك جورج لجران فى بحثه المعنون : " فى بلدان نابليون : مصر " طبع فى جرونوبل ، دار نشر شارل روا ١٩١٣ .

(٢) راجع فيلييه دى تراج . المرجع السابق الذكر .

السفر إلا بعد أن استشف سر الحملة ، ووجدها فرصة طيبة لكى يتحقق بنفسه حول النتائج التى توصل إليها فى بحث كان قد نشره عام ١٧٩٣ حول تكوين دلتا النيل [١] . أما برتوليه ، فكان قد ذهب إلى حديقة النباتات للبحث عن علماء طبيعة فتحدث إلى اثنين من أصغر الأساتذة سنا هما كوفييه Cuvier وجوفروا سانت هيلير Geoffroy Saint-Hillaire قائلاً : " تعاليا معنا ، مونج وأنا سنكون رفاقكما وبونابرت سيكون قائدنا " [٢] . ولم يتمكن كوفييه من اللحاق بهم معتذراً بينما وافق جوفروا سانت هيلير ..

ومنذ السادس من جرمينال (٢٦ مارس) ، كان بونابرت يتولى كافة المهام العسكرية والمدنية فى آن واحد ، فطلب من وزير الداخلية أن يعد له عددا من الأخصائيين ، الذين كان يعلم موافقتهم أو يفترضها ، وأن يكونوا على أهبة الاستعداد للسفر لاتجاهات عابرة مختلفة ، بعضهم إلى مدينة بوردو ، والبعض الآخر إلى فلسينج وكانوا كالآتى : المواطنان دانجوس Dangos ولاشابيل Lachapelle فلكيان ، كوستاز Costaz ، فورييه ، مونج ومولار Mollard مهندسو مساحة ، كونتيه Conte رئيس لواء مراقبى المناطيد ، ثوان Thouin ، جوفروا سانت هيلير ، دليل ، علماء طبيعة ، دولوميو ، عالم مناجم ، برتوليه ، كيمائى ، دوبوى Dupuis ، خبير آثار ، إسنار Isnard لوبير Le Père ، جراتييان Gratien لوبير ، لانكريه ، لوففر مهندسو طرق وكبارى ، والمستشرق شيزى Chezy والمترجم بانهوزين Panhuzen [٣] .

---

(١) راجع " ذكريات دى ديجينيت " .

(٢) راجع اينيين جوفروا سانت هيلير ، خطابات مكتوبة من مصر ، ناشرها م . هامى ، هاشيت باريس١٩٠١ .

(٣) راجع لاجونكيير ، المرجع السابق الذكر ، المجلد الاول ، صفحة ٢٤٥ .

وهذه القائمة المبدئية قد خضعت إلى بعض التعديلات والإضافات من قبل وزير الداخلية بالتنسيق بلاشك مع بونابرت ، وفى ١٣ جرمينال (٢ أبريل) قام هذا الوزير ، السيد ليتورنير Letourneur ، بتقديم أسماء العلماء الذين وقع عليهم الاختيار من بونابرت إلى الإدارة ، لكى " يتم تعيينهم فى مهمة خاصة " وقائمة بأسماء مهندسى وطلبة الطرق والكبارى " للتوجه إلى فلسينج " . وإلى هذه القائمة الجديدة تمت إضافة أسماء كل من نويه Nouet ، عالم فلك ، كلويه Clouet وريشيه Richet ، ميكانيكيين ، ميلبير Milbert عالم مناجم ، ديكوتيل Descotils ، ساموبل برنار Samuel Bernard ، رينيو Regnault ، كيمائيين ، بودار Bodard ، مهندساً ، وفيفر Fever الطالب بالطرق والكبارى. وقد اختفت من القائمة أسماء كل من ليفيفر ودى شيزى[1] .

وقبل الرحيل ، وقعت عدة تخلفات فى صفوف هذه المجموعات الأولى من التجنيد للجنة [2] . وعلى العكس من ذلك ، فقد ازدادت القائمة بعدد ضخم من المرشحين الجدد . فقد اجتذبت الأسماء المسجلة فى البداية العديد غيرها ، إذ أن الدعاية التى قاموا بها حددت مصير الكثيرين ، إذ أصبح كل مرشح يقوم بمهمة تجنيد الآخرين ، وقام القادة باختيار أتباعهم . وهكذا أصبح لواء المهندسين الذى كونه فورييه يضم ٤٥ عضواً سواء كان تلميذاً أم خريجاً أم معلماً أم أستاذاً . أما جوفروا سانت هيلير فقد شجع سافينيى Savigny ، الذى كان عائدا من الصين ، ونكتو Nectoux العائد من سان دومنج ، ومصور الزهور ردوتيه Redouté ، للانضمام إلى جماعة علماء الطبيعة . وقام المرصد

(١) لاجونكيير ، المرجع السالف الذكر ، المجلد الأول صفحة ٢٤٦ .

(٢) لم يسافر كل من كلويه ، ريشيه ، داغوس ، دوك لا شاربيل ، مولار ، إيسنار وثوان .

بترشيح الفلكي كينو Quesnot والطالب ميشان Méchain . أما كافة مهندسي المساحة ومهندسي الطرق والكباري الذين كانوا في الخدمة العسكرية في الجيش الفرنسي بإيطاليا فقد تلقوا الأوامر بالتوجه إلى جنوا [1] للإبحار مع فرق الجنرال بارجي دبلييه Baraguey-d'Hilliers . وكان على قائمة المجموعة الأولى جاكوتان Jacotin رئيساً للمهندسين . أما المطبعة القومية التي طلب بونابرت من ليتورنير أن يوبخ مديرها المتهم بسوء النية ، فقد قام بتزويد المطبعتين بكافة المعدات اللازمة لها ، وكانت إحداهما يونانية والثانية عربية . وذلك إضافة إلى مجموعة من العاملين مكونة من مساعد طباع ، وثلاثة من المصححين ، وثمانية عشر من عمال الطباعة التيبوغرافيين ويقودهم المستشرق مارسيل Marcel ، خلفاً للانجليس Langlès الذى رفض السفر . ويقول الأمر الموجه إلى الوزير المختص : إن هذا العتاد وهؤلاء الأشخاص كانوا سيتوجهون إلى الجزر الإيطالية [2] . كما تم التوجه إلى مدرسة اللغات الشرقية وفريق المترجمين للحصول على مستشرقين ومتحدثين بالعربية ، وكان أحدهم واحداً من أهم المخبرين بوزارة العلاقات الخارجية وهو فنتور دى بارادى Venture de Paradis. أما الفنانون من قبيل فيفان دينون Vivant-Denon ، الذين لم يكن ولعهم بالفن قد اطفأ لديهم روح المغامرة ، فقد طلبوا الالتحاق بالحملة .

وكان بونابرت يود فعلاً أن تضم اللجنة كافة التخصصات التي يمكنها أن تفيد في الأعمال العلمية والفنية والأدبية . بل لقد تمادى في طموحاته بأنه كان يريد من هذه اللجنة أن تقدم للجيش وللمستعمرة التي كان يزمع

(١) لاجونكيير ، المرجع السابق الذكر ، المجلد الأول صفحة ٣١٠.

(٢) راجع لاجونكيير المرجع السالف الذكر المجلد الأول ، صفحة ٢٢٩ .

إنشاءها كافة الموارد التى تلطف وتجمل الحياة . وكم تمنى أن يصطحب الشاعر ديليل ، والموسيقى ميهول والمغنى لوا . وبدلاً من ديليل المتقدم فى السن ، وميهول المحب للبقاء فى المنزل ، ولوا الذى خشى أن يصاب بالرشح ، فقد اصطحب بونابرت كلاً من بارسيفال جرانميزون ، ريجيل وفيللوتو الذى كان البديل الاحتياطى للوا فى الأوبرا . أما الأكاديمى أرنو الذى اضطر إلى التوقف فى مالطة فقد كان يعوض ما ينقص بارسنال ليمثل مجال الآداب .

وعند اقتراب موعد الرحيل وامتلاء قوائم التجنيد اضطرت الحكومة إلى غلق القوائم ، وكانت لجنة العلوم والفنون تضم أكثر من ١٨٧ عضواً من المدنيين والعسكريين [١] . إلا أن عشرين منهم لم يرحلوا ، فإذا ما طرحناهم من المجموع لحصلنا على رقم ١٦٧ ، الذى يشير إليه استيف Estève الجنرال الصراف بالجيش ، فى بيان حالة أعده فى الطريق من طولون إلى مالطة [٢] . أى أن اللجنة فى الوضع الذى عملت به فى مصر تضمنت ١٦٥ عضواً .

وبمجرد تجنيدهم ، كان يتم توزيع أعضاء اللجنة إلى مجموعات تتفق وتخصصاتهم ومع الخدمات التى كان الجنرال يتوقعها منهم : علماء فلك ،

---

(١) إن الأرقام التى نوردها تختلف عن تلك الناجمة عن القائمة المنشورة تبعاً لذكريات دى فيلييه دى تيراج المذكور سلفاً . وهذه القائمة تتضمن بالفعل أسماء أعضاء المجمع المصرى الذى هو المؤسسة اللاحقة والتى اجتمع فيها بعض الجنرالات وكبار الموظفين التابعين للجيش . ولقد اعتمدنا فى تقديراتنا على الجدول الذى أعده استيف والوارد فى الهامش التالى

(٢) فيما يلى بيان الحال هذا وقد نشره لاجونكيير فى المرجع السالف الذكر المجلد الأول صفحة ٥١٠ :
" علماء وفنانون الخ ١٦٧ ، ٢١ رياضيات ، ٣ فلك ، ١٥ علماء طبيعة ومهندسو ألغام ، ١٧ مهندساً مدنياً، ١٥ جغرافياً ، ٤ مهندسين مدنيين ، و٣ طلاب مهندسين بناء ، ٨ رسامين ، ١ نحات، ١٠ فنانين ميكانيكيين ، ٣ بارود وملح بارود ، ١٠ آداب وسكرتارية ، ١٥ قنصلاً ومترجماً فورياً ، ٩ مفتشى صحة ، ٩ محجر صحى ، ٢٢ طباعاً ، فنانين موسيقيين " .

مهندسو مساحة ، كيمائيون وفزيائيون ، مهندسون - ميكانيكيون ، ومعماريون، مهندسو طرق وكبارى ، مهندسو جغرافية ، مهندسون ، علماء حيوان ، علماء نبات ، علماء مناجم ، فنانون وموسيقيون ، آدباء ، اقتصاديون وأخصائيو آثار ، مستشرقون ، قائمون على المطبعة ، وأخيراً جراحون ، أطباء وصيادلة .

ولم يحدث أبداً أن قام جيش لغزو بلد واصطحب معه مثل هذه الانسيكلوبيديا الحية ، إن مجمل كوادر اللجنة كان يمثل موجز ما يمكن لحضارة متقدمة أن تنتجه من مفيد أو مثمر . لقد كانوا يمثلون جنيناً ، ليس لمجرد إدارة ما وإنما لمدرسة حقيقية من التقدم المادى والمعنوى ، إن الأسماء التى كانت تضمها هذه الكوادر والتى ذكرنا بعضاً منها هى أسماء لأساتذة مشاهير قد تم اقتلاعهم ، لمصاحبة بونابرت فى مصر ، من كل من أكاديمية العلوم ، وأقسام كبرى الكليات المتخصصة ، ومن إدارة مؤسسات الدولة . وإلى جانبهم كان هناك العديد من الذين يخطون خطواتهم الأولى فى حياتهم العلمية أو حتى يستعدون لها ، وإذا ما تشكك البعض فى أمر اختيارهم ، فسرعان ما يقتنع بهذا الاختيار عند ملاحظة أن أكثرهم قد اشتهر وأن معظمهم قد وصل إلى أعلى المناصب . فمن بينهم ، كم من مهندسين ارتقوا إلى القمة أو مفتشين عموميين ، وأساتذة ، وأعضاء مقبولين فى المعهد الفرنسى أو فى أكاديمية العلوم أو أكاديمية الآداب بل والأكاديمية الفرنسية ! وقد كتب بونابرت [1] إلى مونج قائلاً : " سنصطحب معنا ثلث المعهد العلمى . وإذا ما اقتصرنا على الحاضر فإن العبارة مبالغ فيها بعض الشئ ، لكن إذا ما نظرنا إلى المستقبل فكان يحق لبونابرت أن يقول أنه كان سيرحل مصطحباً معه ثلث المعهد فى نبتته الأولى .

---

(١) فى ١٦ جرمينال ، ٥ أبريل . وارد فى لاجونكير المرجع السابق الذكر المجلد الأول صفحة ٣٣٠ .

وفى هذه المرحلة كان هؤلاء العلماء فى أغلبيتهم من الشباب . وبرحيلهم تحت قيادة جنرال فى التاسعة والعشرين من عمره ، فقد كان كثير منهم أصغر منه سناً. فيلبيه دى تيراج ودوشانوا كانا فى السابعة والعشرين ، دى بوا إيميه فى التاسعة عشر ، جومار فى الحادية والعشرين جوللوا ولانكريه فى الثانية والعشرين، مالوس وريبو فى الثالثة والعشرين ، ديكوتيل فى الخامسة والعشرين ، سانت جنى فى السادسة والعشرين . أما أكبرهم سناً ، نويه ، فكان الوحيد الذى يقترب من الستينيات ، بينما برتوليه ومونج كانا على التوالى فى الخمسين والثانية والخمسين. وكانوا جميعا سواء شباناً أو مسنين يجمعهم نفس الإخلاص للوطن والعلم ، وما يجب علينا أن نشير إليه بعد ألقابهم هو روحهم المعنوية . فعلى الرغم من أن معظمهم كان يجهل أين يصطحبونه ، إلا أنهم جميعاً كانوا يرحلون فى غاية الحماس والاطمئنان . وقد كتب دوبوا إيميه فيما بعد قائلاً : " كنا نجهل أين كان بونابرت سيقود خطانا. لكن لم يكن يعنينا . إذا أن هذا المحارب المجيد كان يوحى بحماس نبيل وبثقة عمياء. إن مونج وبرتوليه وكافارللى ودولوميو كانوا يرافقونه ويقبلون أن نشترك معهم فى أعمالهم . فهل كان بوسعنا أن نتردد لحظة ؟ " [1] وعلى الرغم من انعزاله فى إيطاليا ، والأدهى من ذلك أن زوجته كانت شديدة التأنيب له وتتهمه بالجنون ، فإن مونج كان قد انتهى به الأمر هو أيضاً بالخضوع لفخر المساهمة فى عملية راح يصف هدفها بهذه الروعة إلى بونابرت [2] :

" هأنذا قد تحولت إلى مغامر . إنها لمعجزة جديدة لبطلنا الأسطورى الجديد،

---

(١) أورده جورج لجران فى المرجع السالف الذكر صفحة ٨١ .

(٢) من بلدة تشيفيتا فيكيا ، فى ٦ بريرال العام السادس ، ٢٥ مايو ١٧٩٨ . أورده لاجونكيير فى المجلد الأول صفحة ٥٠٣.

جازون Jason ، الذى لن يخوض البحار من أجل الحصول على جزّة لن تضيف مادتها الكثير إلى الثمن ، لكنه ذاهب لينقل مشعل العقل فى بلد قد انطفأ نوره من زمان ولم يعد يشع ، وليمد وليوسع مجال الفلسفة وأن ينقل المجد الوطنى إلى بعيد".

وبينما ظل مونج فى روما ، التى لم يغادرها إلا ليبحر إلى تشيفيتا فيكيا مع جزء من فرق الحملة ، فقد كان يجاهد قدر طاعته لإرضاء الطلبات المتكررة لبونابرت فى العتاد والعاملين بالطباعة ، والكتب والخرائط والمترجمين الفوريين. ومنذ ٢٥ فانتوز (١٥ مارس) [١] أعلن أنه سيحصل على ثلاث مطابع من لجنة التنصير بكافة المعدات والمواد اللازمة لتشغيلها ، وقد أضاف إليها الأحرف اللاتينية والعربية والسريانية . كان يزمع الحصول على عدد من الطباعين المساعدين لكنه لم يجد القدر الذى كان يتمناه بونابرت . كما كان يبحث عن المترجمين الفوريين . إلا أنه لم يستطع الحصول على أية خرائط أو أية معلومات من أى نوع كان . فقد جاهد عبثاً ليجد بعضاً منها فى مكتبة التنصير أو مبنى نقش المعادن . ففى إحداهما لم يجد سوى بعض الكتب القديمة التى لا تتفق والوضع الراهن للأمور ، وفى الأخرى لم يجد سوى أطلس بسيط حيث كانت خريطة أفريقيا ناقصة ويجب استكمالها [٢] لذلك اقترح مونج عدم الاعتماد إلا على وثائق باريس فيما يتعلق بالكتب والوثائق ، وأن يأخذوا من هناك عدة نسخ من كل الكتب التى كان هو وبونابرت يمتلكانها فى باسريانو وكانت القائمة لدى مساعد الجبهة سولكوفسكى Sulkowski . أما فيما يتعلق بالمترجمين الفوريين فلم يتمكن من تجنيد العديد منهم ولا حتى من المشاهير

(١) راجع لاجونكيير المرجع السابق الذكر المجلد الأول صفحة ٣٢٢ .

(٢) " " " " " " " " ٣٢٤

فقليل منهم كان يجيد القراءة والكتابة . وقد اقترحوا عليه أحد الرهبان الشديد الثقافة لكنه لم يتمكن من الاتصال به حتى ذلك الوقت ، إذ كتب قائلاً : " إننى مضطر إلى مراقبته ومحاصرته فى كل مكان وأرجو أن أوفق " . وأخيراً فى ١٥ جرمينال (٤ أبريل) [١] كانت المطبعة مغلفة بكاملها وأربعة مترجمين فوريين مستعدين للسفر . وفى الثامن والعشرين من الشهر (الموافق ١٧ أبريل) كان مفوضو الإدارة وكل من مونج ، وفيبو ، ودانو ، وفلوران يحصلون على قرار ينص على تكوين وأجور أعضاء المطبعة الشرقية التى كانت تضم مترجماً فورياً ، ومساعدين للطباعة ، وثلاثة محررين وثلاثة طباعين . وكان المترجم الفورى هو دياربكير أحد الطباعين المساعدين من دمشق [٢] .

واضطر بونابرت أن يعوض بوسائله الخاصة نقص الكتب والخرائط الذى لاحظه مونج فى الفاتيكان . وقام شخصياً بتكليف سكرتيره الخاص بوريين Bourrienne ليكون له مكتبة معسكر صغيرة من القطع المتوسط وقد كتب له القائمة ، وكانت تتضمن ستين كتاباً . ولعل هذه القائمة كانت النواة لمكتبة أضخم من ذلك بكثير والتى تلقى الجنرال كافاريللى أمر تكوينها . واستعان كافاريللى فى هذه المهمة بالاقتصادى جان باتست سيه Jean-Baptiste Say الذى أرشده فى الاختيار وعاونه على شراء الكتب وكان عددها حوالى خمسمائة وخمسين كتاباً . وكانت الانسيكلوبديا ومجموعة أبحاث أكاديمية العلوم ، وأعمال فولتير ، ودراسات فنية وتاريخ عسكرى ، وكتب تاريخ وجغرافيا ، وكتب رحالة، خاصة أعمال سافارى وفولنيه ، وأهم الأعمال الأدبية ، والعديد من الكتب التقنية

(١) راجع لاجونكيير المرجع السابق المجلد الأول صفحة ٣٣٠ .

(٢) راجع لاجونكيير المرجع السابق المجلد الأول الصفحة ٤٤٠ .

في الطب والجراحة والهندسة والتخطيط المدني ، بمثابة العتاد الثقافي للحملة . وهنا لابد من إضافة مجموعة مكونة من سبع نسخ من الخرائط للجغرافي دانفيل ، ولم تكن متعلقة بمصر وحدها وإنما خاصة بالمناطق التي كان يمكن أن تمتد إليها الأعمال الحربية للجيش : أوربا الوسطى ، شطآن اليونان وجزرها ، آسيا ، فلسطين ، الهند، الخليج العربي ، فينقيا ، بحر قزوين وأفريقيا . وقد تم تخصيص مبلغ ٢٥٣٢٩ جنيهاً لتكوين هذه المكتبة .

ولم تكن هذه إلا جزءاً من المهمة الملقاة على عاتق الجنرال كافارللي . وفي أحد خطاباته لبونابرت اقترح عليه مونج شراء مقياسين أو ثلاثة وأن يستعين ببروني Prony من أجل ذلك [1] . وهذه النصيحة كان القائد العام قد تنبه لها وقام بتنفيذها قبل أن يصله هذا الخطاب ، إذ كان قد أوصى كافارللي [2] بشراء كافة المعدات التي قد تحتاج إليها اللجنة وهو يقوم بشراء الكتب ، ومنها معدات الفلك ، والفيزياء والكيمياء ، والمسح الأرضي ، ومعدات ومواد لمحطة المناطيد ، وعلم الأحياء ، والجراحة ، والصيدلة ، والطباعة والعديد من الآلات والمعدات المختلفة . وقد ارتفعت قيمة مشتريات كافارللي بما فيها المكتبة ومصاريف النقل والتغليف وأتعاب الموظفين إلى مبلغ ٢١٥٥٠٩ جنيهاً. وقد زود كل فريق من اللجنة بطاقم كامل من المعدات والأدوات : ساعة ونظارة فلكية للفلكيين ، بوصلة ، مقاييس الانحراف ، مقاييس استواء للمساحين ، آلات غاز ، كهرباء ، بارومترات ، ترمومترات

---

(١) ٢٧ مارس . راجع لاجونكيير المرجع السابق المجلد الأول صفحة ٣٢٧ .

(٢) منذ الثاني من جرمينال (٢٢ مارس) اهتم بونابرت بمعرفة إذا ما كانت النقود اللازمة قد وضعت تحت تصرف كافارللي . راجع لاجونكيير المجلد الأول صفحة ٢٤٣ .

ومقاييس رطوبة للفزيائيين إلخ إلخ ... كما حصل الجراحون على كل ما يلزمهم لعمليات البتر ولعمليات ثقب العظام ، والقرنية ، والقطع والحز إلخ... كما تم فك وتغليف مرصد ومعمل فيزياء ، ومعمل كيمياء ، ومعدات مساحة ومكتب للعلوم الطبيعية ، ومنشأة مناطيد ، وصيدلية ، ومستشفى ، ومطبعة ، وذلك ليتم شحنها مع الجيش[1].

وفى آواخر جرمينال (منتصف أبريل) كان قد تم تكوين اللجنة على الورق وتم تزويدها بترسانتها العلمية ، فأعطى بونابرت أمر التجمع . وكان كل العلماء والفنانين والعمال والضباط ومعظمهم من باريس وبعضهم من الأقاليم ، على أهبة الاستعداد للرحيل إلى فلسينج أو بوردو إلا أن كافارللى قد أعطاهم أمر التجمع فى ليون حيث وصلوا إليها فى ٤ فلوريال (٢٣أبريل). وأعلن لهم فى أمر الرحيل أن هدف السفر متجهاً إلى روما . وكان على برتييه رئيس الأركان أن يزودهم بالجوازات بينما سبقهم كافارللى إلى مدينة ليون . وكان على أحد الضباط المهندسين أن يستأجر عربة جياد للمسافرين أو قارب لنقلهم إلى المدينة آفينيون . وقد وصلوا مساء ٨ فلوريال إلى طولون حيث كان كافارللى قد أعد لهم أماكن المبيت .

ولقد تمت الرحلة وفقاً لهذا البرنامج الذى كان بونابرت قد أعده . فبدأت الرحلة على طرق فرنسا وعلى مياه نهر الرون ، فى عربات متواضعة وعلى قوارب تجرها الجياد . إن ملحمة هذا الجيش الكبير العلمى قد بدأت وكأنها رحلة للاستمتاع . وسعد الشباب بضحكاتهم وحيويتهم وبفرحة الحياة وعدم الاهتمام

(١) راجع فيما يتعلق بمشتريات المكتبة والمعدات الخاصة بلجنة العلوم والفنون ، المرجع الوارد ذكره فى لاجونكيير ، المجلد الأول ، ملحق ٣ صفحة ٦٦٣ .

بالغد . وكان الخريجون الجدد يهللون باكتشافاتهم وهم يكتشفون فرنسا ، فقد كانوا يسخرون وهم جادون ، وتلهيهم مناظر الطريق والشوارع وهيئاتها ، أو عادات وتخلف الأقاليم ، وكانوا يهتمون بالأبنية والآثار الرومانية وجمال الطبيعة ، بل وكان بعضهم مثل جوفروا سانت هيلير يعجب بالمدارس والمجموعات والصناعات . وكانت الوجبات غير المتوقعة والمرتجلة ووسيلة البيات كافية بالكاد لتضفى على هذه الرحلة روح الفريق الذى هو سحر السياحة .

ولم يكن هدف الحملة ليفزع أحداً ، فبينما ما زال الشك يحوم حول غايتها لم يكن أى شخص يهتم بذلك إذ اطمئنوا للهدوء الواضح على قادة اللجنة وتماسكهم . وعند وصلهم إلى طولون علم جوفروا سانت هيلير من كليبر أنهم " ذاهبون إلى الهند " ولا يبدو أن هذا الاحتمال أو فكرة " الرمال الحارقة فى مصر " قد أثارت قلقه (1) .

وكتب بونابرت إلى مونج فى ٢١ فلوريال (١٠ مايو) (2) قائلاً : " لقد وصلنا جميعاً هنا (3) ومخيم علمائنا فى حالة معنوية عالية " . وسرعان ما بدأ الإبحار. وتم تقسيم أعضاء اللجنة على مختلف بواخر الأسطول ، وكان أكثرهم مكانة من قبيل برتوليه وآرنو ، على متن البارجة الرئيسية " أوريان " بينما تم توزيع الآخرين على بوارج أكثر تواضعاً (4). وعندئذ بدأ الاحتكاك بين المدنيين ، الذين كانوا حتى

---

(١) راجع الخطابات المكتوبة من مصر إلى كوفييه ، ٢٤ فلوريال ، ١٣ مايو

(٢) راجع لاجونكييرالمرجع السابق المجلد الأول .

(٣) فى طولون .

(٤) جوفروا سانت هيلير على متن " الألسست " وفيليبيه دى تراج على متن " فرانكلين " وسافينى ورافنو ديليل على متن " دبوا " إلخ

تلك اللحظة يكونون جماعة متجانسة بينهم ، وبين العسكريين الذين كان عليهم أن يتعايشوا معهم . وكان الاحتكاك فظاً قد عانى المدنيـون كثيراً . وقـام كافارللى ، بناء على أوامر بونابرت ، بتقسـيم أعضـاء اللجنـة وفقاً لمكـانتهم فـى فرنسـا ، إلى خمس طبقات [1]، تحصل كل منها على معاملة مختلفة واندماجاً محـدداً وفقاً لتـدرج الرتب العسـكرية ، فـالذين أدرجـت أسماؤهم فـى الدرجـة الأولى تسـاووا بدرجـة الضباط العليا وهكذا . وقد حاول القـائد الأعلـى بهـذا التصـرف أن يحـد مـن أى تفرقة بين المدنيين والعسكريين فيما يتعلق بترتيبـات الإقامـة علـى البـاخرة . ولقـد تصرف بدون عجرفة ضباطه وبدون تحيزاتهم وارتيابهم من أولئـك الدخـلاء ذوى السـترات المدنيـة والـبرانيط العاليـة ، أى اختصـاراً ضـد كـل أولئـك " المدنيـين " وباستثناءات قليلة ، فقد أسيء استقبال العلماء على السفن ، فواحـد مـن أشـهرهم اضطر للتشاجر طويلاً ليحصل على كبينة وعلى مرقد . وعـادة كـان ينظـر إليهـم بعين ضارية من قبل ضباط الجيش ، بل حتى مـن قبـل بعـض كبـار الجنـرالات فـى المحيط المباشر لبونابرت ، إذ كانوا لا يتحرجون ألبته من التعبير عن عدائهـم . وقـد امتد هذا الوضـع طـوال مـدة الإبحـار . كمـا أن قـائد اللجنـة نفسـه ، كافـارللى- دوفالجا، لم يتورع عن الإعراب عن تفضيله المهندسين العسـكريين علـى المهندسـين المدنيين . فالاهتمام والرعاية التى كان يغدقها بونابرت على العلماء الذين معه علـى متن " الأوريان " قد زادت من غيرة واحتقار غالبية رجال السيف لملطخى الورق . فلقد كان جونو يتثاءب فى الجلسات التى كان يجمع فيها القـائد الأعلـى كـل مـن برتوليه، فنتور ، آرنو ، ديجينيت ، لارى ، ويقول "لان" قد تم قبوله فى اللجنة مـن

---

(١) راجع خطابات جوفروا سانت هيلير .

أجل اسمه [1] . وكان "لان" يعتقد أنه فى مأمن من هذه الإهانة ، وكم ندم على أنه لم يتمكن من إلقاء آرنو فى البحر بواسطة خمسين جندياً ! وبالطبع لم يسقط كل الضباط إلى هذا المستوى وأكثر من واحد قد تمسك بالإفصاح عن تقديره لجيرانه المدنيين ، من قبيل الجنرال رينيه الذى أحاط جوفروا سانت هيلير بكل العناية واستطاع أن يجعل مرؤسيه يتبنون نفس الترحيب بالعالم الشاب . إلا أنه إجمالاً يمكن القول بأن اللقاء الأول بين العناصر المدنية والعناصر العسكرية كان خالياً من أى ترحاب . ولم يتخل العسكريون عن عدائهم إلا فيما بعد بكثير .

لنترك الآن العلماء والجنود يبحرون إلى مالطة ، ثم إلى الإسكندرية ، ولنتوقف لحظة أمام الاستعدادت العلمية التى أشرنا إليها . إنها ولاشك قليلة نسبياً إذا ما قارناها بالاستعدادات العسكرية الضخمة التى تمت فى نفس الوقت على التوالى ، إلا أنها مع ذلك تمثل جهداً ضخماً وأدت إلى نتيجة فريدة فى التاريخ فى تكوين جهاز عسكرى بصورة لم تتح لمثله أبداً . وإذا ما كان يقال حقاً إن الوظيفة تخلق العضو ، فإنه يمكننا قياس أهمية المهمة التى من أجلها تم خلق هذا الجهاز .

وبينما كانت الحملة فى حيز التنظيم ، وبعد أكثر من شهر من بداية الإعدادات العلمية والعسكرية ، قررت الإدارة أن تعلن فى قرار [2] ، ظل سرياً لفترة ، الهدف والغرض من المهمة المسندة إلى بونابرت .

إن القائد الأعلى لجيش الشرق ، كما يوضح القرار فى المادة ٣ : " سوف

(١) نطق هذا الاسم يطابق صوتا اسم " الحمار " بالفرنسية (المترجمة) .

(٢) القرار الصادر فى ٢٣ جرمينال العام السادس ، ١٢ أبريل ١٧٩٨ . وارد فى لاجونكيير المرجع السابق المجلد الأول .

يشق قناة السويس ويتخذ الإجراءات الضرورية لتأكيد الملكية التامة للبحر الأحمر وتبعيته للجمهورية الفرنسية " ، وفى المادة التالية نطالع :" وسوف يقوم بتحسين حال المصريين بكافة الوسائل التى تحت سلطته " . وكانت هذه الإشارة الدقيقة فى نقطة واحدة ، والعامة فيما يتعلق بالباقى ، هى تحديد المهمة السياسية والمدنية التى كان على لجنة العلوم والفنون أن تساهم فيها .

فرنسوا شارل-رو

السياسة الإسلامية لبونابرت

مجلة الدراسات النابليونية
السنة الرابعة عشر – المجلد الرابع والعشرون
يناير – يونيو ١٩٢٥

إن الشعور الدينى والاهتمام الروحى لكل محركات نفسية المواطنين ، والمبالغ فيها إلى درجة التعصب والمدان لإجراءات تافهة شكلاً ، كان هو الشئ الوحيد الذى يمكنه خلق أصعب المشاكل بالنسبة للغازى.

وقد كتب بونابرت قائلاً [1] : " إن السياسات التى كانت أفضل ما لاحظت من مهارة الشعوب المصرية هى تلك التى اعتبرت أن الدين هو العقبة الأساسية لاستقرار السلطات الفرنسية ، فقد كتب فولنيه قائلاً عام ١٧٨٨ ، لكى تستقر فى مصر لابد لك من شن ثلاثة حروب : الأولى ضد انجلترا ، والثانية ضد الباب العالى ، والثالثة – وهى أصعبهم جميعاً – ضد المسلمين الذين يكّونون غالبية شعب ذلك البلد " .

وبونابرت ، الذى لم تكن أولى هذه الحروب لصالحه ، والذى يستشف التهديد الثانى تحت صمت تركيا وإن كان يأمل تفادى الحرب الثانية ، كان بونابرت أكثر قلقاً لإثارة الثالثة . فمحاولة تكذيب نبؤة فولنيه والاستحواذ على كافة الأسباب التى يمكنها أن تبعد عنه سكان مصر ، كانت – فى نهاية المطاف – هدف سياسته المحلية . إلا أن التأثير بصفة خاصة فى أحد هذه الأسباب ، وهو أكثرها أهمية ، يمثل موضوع جزء من هذه السياسة المحلية

(١) راجع برتران " حملات مصر وسوريا " المجلد الأول ، صفحة ٢١١ .

والتى لابد أن نفرد لها مكاناً على حدة وهى : سياسته الدينية .

فلم يسبق لأى مستعمر أوربى أن واجه الإسلام باستعدادات أكثر تسامحاً بل وأكثر تعاطفاً [1] . فلم تكن هناك أية خلفية للتبشير بالمسيحية ، ولم تكن هناك أية أفكار مسبقة دينية تؤثر على فكر بونابرت بصورة مضرة بالمسلمين . وبصفتهم كفاراً أو غير مؤمنين [2] ، فلم يعانوا من جانبه أى عداء أو احتقار . فقد كان وقتها مليئاً بالأفكار التى روجتها الثورة ، مستقلاً عن الكنيسة الكاثوليكية ، ومعادياً للتطرف البابوى حتى يحطات ضد أتبا ع الإسلام لمجرد أنهم أغراب عن الإيمان المسيحى . إلا أنه كان أيضاً شديد الروحانية ، ويؤمن بالإله على طريقة عصره بل متديّن على طريقة كل العصور لكى يحطات ضدهم لمجرد انهم مؤمنون مقتنعون ينتمون ويمارسون ديانة لها عقائدها وعبادتها . إن إيمانهم العميق ، وورعهم ، والعقيدة الأساسية لدينهم – وهى التوحيد با لله – لم تكن أبداً لتجرح أفكاره الفلسفية ، فهو يحترم إيمانهم ، ومفهومه للإله أقرب ما يكون للعقيدة التوحيدية للإسلام منها لعقيدة التثليث لمختلف الديانات المسيحية . إن محمداً يثير إعجابه [3] كمؤسس دينى ، وقائد للشعوب ، ومشرّع . إن التاريخ ومذهب النبى كانا قد أثارا اهتمامه منذ زمن بعيد ، وقبل حتى أن يعرف أن قدره سيقوده إلى مصر بدأ يدرس تاريخ العرب[4] . كما قرأ القرآن وكان يحتفظ بنسخة منه فى مكتبته أيام الحملة إلى

(١) " بونابرت والإسلام " بقلم س. شرفيل . باريس ، بدون ، ١٩١٤ .

(٢) هكذا وصفهم للمسلمين فى كتاباتهم !!! (المترجمة) .

(٣) " محمد كان رجلاً عظيماً " . برتران ، حملات مصر وسوريا " المجلد الأول صفحة ٢٠٨ .

(٤) يوجد بين مخطوطاته وهو شاب ملخص لتاريخ العرب للأب مارينى وهذا المخطوط تم طبعه مع غيره ومن بينها ملاحظات عن تاريخ مصر القديمة بقلم فريدريك ماسون تحت عنوان " نابليون المجهول " .

جانب العديد من الكتب الدينية [1] . فالإسلام يستحوذ على خياله من قبل أيام الحملة على مصر ، وقد ازداد كثافة أثناءها وامتد بعدها . وأثناء اعتقاله ، كم عاد بذاكرته إلى العالم الإسلامى ، وفى تلك الأحاديث التى كان يمليها فى سانت هيلين ، توجد بضعة صفحات وهى أكثر الصفحات الموضوعية وأكثرها تعاطفاً بين كل ما كتب عن الإسلام فى إحدى لغات الغرب .

وإقناع المسلمين فى مصر بحسن نواياه ، الودية الحقيقية والتى يشعر بها فعلاً ، والإعراب لهم عنها وإثباتها لهم هى فى نهاية المطاف بمثابة كل السياسة الدينية لبونابرت. فلم يقم أى مستعمر أوربى بالكشف عن نوايا أكثر إخلاصاً وإعلانها بصورة قاطعة ، أو قدم أدلة متعددة وواضحة أكثر من ذلك .

ومنذ وصول بونابرت إلى مصر بدأت التصريحات والأدلة ، الكلمات والأفعال . ففى أول بيان له للمصريين ، دافع بحماس عن أنه لم يأت لهدم دين المسلمين ، وأعلن عن احترامه لله ، ونبيه والقرآن ، كما أعلن ضمناً عن انضمامه للإسلام زاعماً بأنه يُعتبر هو وجنوده كمسلمين حقيقيين ، وأشار أيضاً فى هذا البيان إلى إلغائه منظمة مالطة الدينية ، وإلى عداءات الجمهورية ضد الكرسى الرسولى ، وإلى التحالف القديم بين فرنسا والباب العالى العثمانى. ومثلما أوضحه بنفسه للإدارة [2] فقد كان منزله بالإسكندرية باستمرار مليئاً بالأئمة والقضاة والزعماء والمفتين أو زعماء الدين وقد تعهد أمامهم كتابة بأن يفرض احترام الدين والعبادة ، وقد نفذ كلمته إذ أنه فرض على جنوده هذا الاحترام . ووفقاً لأقواله شخصياً فقد استمرت الصلاة فى

---

(١) العهد القديم والعهد الحديث ، والفيدا ، والأساطير .

(٢) خطاب ١٨ مسيدور ٦ يوليو . مراسلات نابليون رقم ٢٧٦٥ .

كل مكان كالمعتاد . وعند دخوله القاهرة ، جدد نفس التعهدات وأعرب عن نفس الإعجاب " بدين النبى وأنه يحب هذا الدين " .

وكل هذه الاحتياطات لم تغيّر من الريبة والعداء اللذين كانا يعكسهما الفرنسيون – بحكم أنهم كفرة – على أغلبية المسلمين فى مصر . لكنها بلا شك قد ساهمت فى تهدئة ما وقع فى الإسكندرية ورشيد والقاهرة . لكن فى المناطق الأخرى من بقية القطر فإن المواطنين لم يصدقوا الكلمات التى وصلتهم عبر البيانات ، ودون حتى انتظار رؤية الفرنسيين فى العمل ، تعصبوا فى ألا يروا فيهم سوى أعداء للإسلام . " إن الفرنسيين ليسوا سوى مقبولين على مضض من أتباع الإسلام ، الذين أذهلتهم سرعة الأحداث ، فانحنوا أمام القوة ، لكنهم ينعون سوء الحظ الذى نصر الكفرة الذين دنس وجودهم المياه المقدسة، ويئنون من الخزى الواقع على أول مفتاح للكعبة الشريفة [1]. وهو سبب أساسى لثورات الأقاليم ، فهذا النوع من النفور الدينى يدعّم حتى فى الأماكن الخاضعة للنظام والأمن تهديداً دائماً من القلاقل . إن العداء بل الخيانة فى حق الكفرة ، الذين هم الفرنسيون ، يعد بمثابة فخر أو مجد حتى فى أعّين الذين يدفعهم الحرص على الطاعة : فعندما اقتيد السيد محمد كريم ، زعيم الإسكندرية الذى خان كليبر ، من أبى قير إلى القاهرة تزاحم سكان رشيد – حيث تفاخر منو Menou بأنه أقر وفرض سلطته بصورة قاطعة – من كل مكان لتحية السجين [2] وقد دعى الأئمة إلى حرب قلما نجا منها غزاة أوربيون فى

(١) برتران : " حملة مصر وسوريا " المجلد الأول صفحة ٢١١ . يطلق المسلمون على مصر " أول مفتاح للكعبة الشريفة " وذلك بسبب اقترابها من المدن المقدسة مكة والمدينة .

(٢) راجع لاجونكيير المرجع السالف الذكر المجلد الثانى صفحة ٤٥٢ .

بلد إسلامى ، فقد كانت حرب الجهاد كامنة فى مصر . وكتب بونابرت فيما بعد: " إن نبوءة فولنيه على وشك التحقيق " إذ كان الموقف يبدو فى نظره أشبه ما يكون بمعضلة : " فإما الإبحار عودة ، وإما المصالحة مع الأفكار الدينية ، ونبتعد عن لعنات النبى ، وألا نترك أنفسنا نوضع فى صفوف أعداء الإسلام " [(١)]. أى أن التجربة أثبتت أنه لكى يوضع المرء فى مصاف أصدقاء الإسلام ، لا يكفى أن تقف فيها بنفسك . فمهما كانت إثباتات الصداقة مخلصة من قبل كافر فإنها ستظل دائماً موضع شك . فلم تكن هناك فرصة للجماهير إلا أن تستمع إلى بيانات الزعماء الدينيين المسلمين ، ويسمحون لهم ويأمرونهم بالطاعة إلى الفرنسيين " فكان لابد من إقناع المفتين والعلماء والزعماء والأئمة وكسب جانبهم ليقوموا بتفسير القرآن لصالح الجيش " .

ويوجد فى القاهرة مسجد يجمع فى طابعه بين المدفن المبجل بصفة خاصة وجامعة إسلامية مشهورة فى كل العالم الإسلامى : إنه المسجد الأزهر . فتحت أروقته وفى فنائه المضئ وبهوه ذى الأعمدة المصطفة التى تدفق عليها فيما مضى، أيام الخلفاء ، أكثر من ١٢٠٠٠ طالب قادمين لا من مصر وحدها ولكن من جميع أنحاء العالم الإسلامى : أتراك من أوربا وآسيا ، مغاربة من طرابلس وتونس والجزائر والمغرب ، ومن فارس ، فُرس سكان سمرقند وبخارة ، هندوس ، حبشيون ، سودانيون إلخ ... وفى الفترة التى سبقت الحملة الفرنسية انخفض عدد الطلبة إلى حوالى ١٢٠٠ ، والتعليم الذى كان يتضمن أصول الفقه والشرع والطب والرياضيات والتاريخ ، قد انحصر – بخلاف القرآن – إلى مبادئ المعارف وإلى اللغة العربية . ومع ذلك ، وإن كان قد

(١) برتران :" حملات مصر وسوريا " المجلد الأول صفحة ٢١٢ .

انحدر عن روعته السابقة ، فما زال الأزهر يعد أحد أنشط مراكز تعليم القرآن، وأحد المقار التى يشع منها الإيمان الإسلامى على العالم ، وهو ما زال يأوى فى حلقاته مسلمين من أجناس وأصول شديدة التنوع [١] . والأساتذه الذين يعلمون هذا الشباب المتنوع – المجتمع بحكم الصلة الدينية وحدها – عادة ما يشتهرون بالورع وبنقاء عقيدتهم ويتمتعون بسلطة معنوية معينة . ومشايخ " سوربون الأزهر " على حد قول بونابرت ، يمكنهم أكثر من مشايخ أى مسجد آخر معارضة أو مساندة سياسته حسب الحالة .

ولقد لجأ إليهم بونابرت ليحصل على " فتوى " تفسير قرآنى ، نوع التولية التى كان يتمناها لتدعيم سلطاته " إن الحصول على بيان لصالح الفرنسيين من هؤلاء الأعيان الدينيين كان بمثابة نصر معنوى يكمل نصر الأهرامات [٢]. هكذا كانوا يظنون من حوله ، وهكذا كان يعتقد هو شخصياً . وقد راق له أن يحكى فيما بعد بأية جهود مثابرة استطاع أن يحقق هذا النصر المعنوى "[٣] .

وإذ أصبح مفتو المذاهب الأربعة التى تتقاسم الإسلام وكذلك مشايخ الأزهر – فى المجال المدنى أهم أعوان إدارته ومساعدى سلطته اعتادوا على الذهاب إلى مقر القيادة صباح كل يوم ، وفقاً لما أملاه بونابرت فى سانت هيلين ، وثلاث أو أربع مرات فى

(١) راجع " وصف مختصر لمدينة القاهرة والقلعة إلخ .. " بقلم جومار فى " وصف مصر " ، العصر الراهن ، المجلد الثانى . ويذكر جومار من بين الذين يرتادون على الأزهر " فرس – وسوريون وأكراد، وعرب من الحجاز واليمن وأفارقة ، غربيون " .

(٢) " التاريخ العلمى والعسكرى الخ .. " المجلد الأول (الحملة) صفحة ٢١٩ .

(٣) راجع برتران : " حملات مصر وسوريا " المجلد الأول ، الفصل المعنون : شئون دينية . راجع أيضا " فرنسا فى أفريقيا " بقلم الكومندان إدمون فيربى ، الفصل المعنون : بونابرت والعلم الإسلامى .

العشرة أيام ، وفقاً لخطاب كتبه هـو إلى مـارمون [1] Marmont . وكـل مـرة تعـد هـذه المجادلات بالنسبة لبونابرت فرصة ليدبر الحديث حول الدين ، وأن ينطلق في مناقشات دينية حقيقية تسمح له بها درايته بالقرآن وتعوض تدريجياً فجوات معلوماته . وفي مثـل هذه المدرسة ، سرعان ما أصبح " كالطالب " وقـد اختبر ذلـك النـوع مـن المناقشـات كأكثر المشايخ حنكة وأكثرهم رهافـة . وبانتهـازه فرصـة التصاراتـه الشـخصية ، كـان يضع محدثيه في مواقف حرجة بذكر أجزاء من القرآن تنبئ عن مقدمـه مـن الغـرب إلى ضفاف النيل . فهل كان بوسعه أن يهزم المماليك لولا حماية ا لله ومحمـد لـه ؟ [2] وهـل كانت هذه الحماية ستعطى له لـو لم يكـن المـاليك يسـتحقون الجـزاء ولـو لم يكـن هـو يستحق مساندة ا لله ومحمد ؟ وحينما شعر أنه قد تم تملق المشايخ والمفتين بالقدر الكـافي بوسائله الناجعة وأنهم قد اقتنعوا بنواياه الحسنة ، بدأ يشكو لهم من الأئمة الذين يعملون على إشعال حرب الجهاد في الأقاليم ، ثـم ذات يـوم قـال بحرقـة لعشـرة منهـم بعـد أن تأكد من ثقتهم: "إني بحاجة إلى فتوى من جـامع الأزهـر تـأمر الشـعب أن يـؤدي قسـم الولاء". وأصيب المشايخ بالذهول والذعر ، ثم سـرعان مـا وجـدوا مخرجـاً ، فبمـا أنـه شديد الإعجاب بهذا القدر بمحمد ويُرجع نجاحاتـه إلى حمايـة ا لله للإسـلام ، فلمـاذا لا يسلم هو وجيشه بأسره ؟ وعندئذ لن يترددوا في أن يقدموه للشـعب علـى أنـه مرسـل من قبـل ا لله ، كصديـق للنبـي ، وسيسـتمع الجميـع لندائهـم . وسـيتكالب المصريـون والعرب تحت راياته . وفي هذه المرة كان الدور على بونابرت أن يشعر بالحرج .

---

(١) " اذهب إلى الشيخ المسيري وأبلغه أنني ألتقي ثـلاث أو أربـع مـرات فـي العشـرة أيـام ، مـع رؤسـاء الشرع وأهم زعماء القاهرة ، وأنه لا يوجد شخص أكثر مني اقتناعاً بنقاء وقدسية الدين الإسـلامي " بونابرت إلى مارمون ، ١١ فروكتيدور – ٢٨ أغسطس ١٧٩٨ . مراسلات نابليون ، رقم٣١٤٧.

(٢) هذا مرجعه فهمهم الخطأ للإلوهية وللقرآن (المترجمة) .

وحتى إن لم يكن موقفهم إلا مناورة تسويفية ، فإن اقتراح المشايخ قد وضعه في مأزق . فإنه قد تمت محاصرته عن قرب ، وأن مسألة علاقته بالإسلام قد أدت إلى إثارة مسألة اعتناقه الإسلام كشرط أساسى للولاية الدينية التى كان يطمع فيها . وفيما بعد ، وبينما كان يتحدث عن ذكريات هذه المساومة الغريبة تنوعت آراء بونابرت حول الموقف الذى سمحت له الظروف بتبنيه . فتارة يقول إنه لو كان أسلم لاضطر جيشه إلى اتباع خطاه (١) ، وتارة أخرى يعترف أن الاحتمال كان من المستحيل (٢). وفى واقع الأمر ، فإن كانت مجرد تعديلات فى زى فرق الجيش كانت تقابل باعتراضات كان على بونابرت أن يرضخ لها ، فمما لا شك فيه أن الاعتناق الجماعى للإسلام لم يكن الجيش ليقره أبداً (٣) . ولا شك فى أن بونابرت قد أدرك ذلك ، حينما وجد نفسه أمام هذا العرض غير المتوقع ، ولكى لا يرد بالرفض ، فقد قرر المخادعة .

فأجاب قائلاً : هناك افتراضان يعترضان إمكانية اعتناقه هو وجيشه الإسلام وهما : الختان وتحريم شرب النبيذ . والأهم من ذلك ، أنه قبل أن نصل إلى عملية الاعتناق هذه ، فيجب أن تمنح فرق الجيش الوقت الكافى للتعرف على عقائد الإسلام وممارساته ، وأنهم بحاجة إلى عامين لتحقيق ذلك . أما فيما يتعلق

(١) " ومع ذلك ، فلم يقال أنه كان من المحال أن الظروف كانت قد تضطرنى إلى تبنى الإسلام ألا يتصور أحد أن كل امبراطورية الشرق وربما تبعية كل آسيا لا تستحق أن أرتدى العمامة والخف ؟ ففى حقيقية الأمر ذلك هو كل ما كان سيكون فى الأمر . لم نكن سنفقد إلا سراويلنا وقبعاتنا ، أقول نحن، لأن الجيش ، فى الحالة التى كان عليها لم يكن ليتردد بل ولما رأى فيها إلا ضحكا ومزاحا " وارد فى شروفيس المرجع المذكور صفحة ٢٣٨ .

(٢) " التاريخ العلمى والعسكرى الخ ..." المجلد الأول (الحملة) صفحة ٢٢٠.

(٣) والدليل على ذلك كل السخرية التى لحقت باعتناق منو الإسلام .

به ، ونظراً لاقتناعه بأن دين محمد ديانة ممتازة ، فقد وعد ببناء مسجد على نصف فرسخ حيث يمكن للجيش بأسره أن يقف فيه . وسرعان ما أمر بإعداد الرسومات الخاصة والنقود اللازمة . وبعد عدة مشاورات أحضر المفتون الأربعة إلى بونابرت فتوى وقد كتبوها ووقعوا عليها ، وكانت مرضية حول مسألة الختان ، لكنها صارمة فيما يتعلق بالنبيذ . وبناء على اقتراح من أحد مشايخ الأزهر ، تم اختصار الفتوى إلى جزئين الأول والذى رغم مساسه بإحدى العادات الطقسية للإسلام ، أقرت فيه بقبول الفرنسيين مع المسلمين ، وما أن تم بهذه الصورة تبادروا بإذاعته فى كل المساجد . أما الجزء الثانى ، فقد أخضعه المفتون إلى مناقشة جديدة وأرجعوها إلى مكة . وأخيراً أحضروا فتوى لبونابرت ، تقوم بتفسير القرآن فى هذه النقطة بصورة لصالح عادات الجنود " وقد تم إعلان البيان من أعلى مآذن المسجد الكبير وسرعان ما تداولها مؤذنو المساجد الأقل شأنا ليعلونها على الشعب ساعة الصلاة " [1] . فهل يتعيّن ، علينا أن نفهم ، حسب تأكيدات مؤلفو " التاريخ العلمى والعسكرى للحملة " أنه " منذ هذه اللحظة استتبت الثقة الكاملة ؟ " ستكون مبالغة شديدة . فلا المشايخ الذين انصاعوا لرغبة بونابرت ولا الشعب الذى وجهوا إليه نصائحهم كفوا عن اعتباره هو شخصياً وجنوده رجالاً أغراباً عن إيمانهم . بل ولا حتى تخلى القائد الأعلى والجيش بأسره عن مظاهر المسيحية ولم ينزع عنهم صفة الكفر هذه والتى لم تكن لتمحى إلا باعتناق الإسلام ، شريطة أن يكون هذا الاعتناق صريحاً مخلصاً . فلم يكن من المهم " لجيش لم يرتد الكنائس

(١) راجع برتران " حملات مصر وسوريا " المجلد الأول ، صفحة ٢١٨ .

فى إيطاليا أن يرتادها فى مصر [1] أو إن أى آثر خارجي للمسيحية بل أية عادة دينية كانت ستختفى من صفوف الجيش " . فرغم ابتعادهم عن الكاثوليكية ، لم يكن الفرنسيون ولا قائدهم أقل كفراً من أجل ذلك . وإنما كانوا كفاراً متسامحين ، حسنى النوايا لأتباع النبى ، وكان عدم اكتراثهم الدينى هو الجانب الوحيد الذى كان يمكنه أن يفيدهم فى إسهامهم فى فرض الثقة بتسامحهم وبحسن نواياهم .

ولقد جاهد بونابرت ليعرب عن ذلك بأفعاله . فإذا ما قام بعض الجند وهم يعملون فى بعض التحصينات بهدم بعض المقابر يتم لومهم ، وتوقف الاعمال ، ويعاد بناء المقابر ويسمح للمفتى بمواصلة التقاليد المتبعة [2] . هل كانت إدارة مسجد السلطان حسن سيئة رغم الهبات الثرية التى يمتلكها ؟ كان بونابرت يذهب لزيارته فجأة فى ساعة الصلاة ويُحضر الأئمة ويقوم بتوبيخهم ويأمر باجراء تحقيق ينتهى بإلزام المخلّون بإعادة ما استولوا عليه [3]. وإذا ما أتت اللحظة التى ينتظرون فيها عودة الحجاج الذين ذهبوا إلى مكة والمدينة ، يعلق بونابرت أهمية قصوى على أن تتمكن القافلة – مثل كل عام – من أن تصل إلى القاهرة سالمة . وباعطائه الأمر إلى برتييه الذى يكون الديوان يكتب قائلاً : "إن همك الأول هذا المساء أن تجعل الديوان يكتب للقافلة أن تحضر بلا أية مخاوف [4] ولدرايته بدور هذا الحج السنوى فى الحياة الدينية للإسلام ، فإن

(١) راجع الكومندان فيرى المرجع السالف الذكر ، بناء على إملاءات نابليون فى سانت هيلين حول حملاته فى مصر وسوريا .

(٢) راجع برتران " حملات مصر وسوريا " المجلد الأول صفحة ٢٢٩ .

(٣) المرجع السابق صفحة ٢٣٠ .

(٤) ٧ ترميدور ٢٥ يوليو . راجع لاجونكيير المرجع السابق المجلد الثانى ، صفحة ٢٨٣ .

بونابرت يدرك تماماً الخطأ الذى سيقع على الاستعمار الفرنسى فى مصر ، إن أمكن القول ، أن يمس إتمام هذا الواجب المقدس . فلم يكن الأمر يتعلق بالمصريين وحدهم وانما بالليبيين والتونسيين والجزائريين وسيادة المغرب الذين يستخدمون جميعاً الأراضى المصرية للوصول إلى البلاد المقدسة ويعودون منها ، كما ستثير غضب أهل المدينة ومكة الذين سيستفيدون بسخاء من هذا التدفق السنوى . أى أن سمعة الحكومة الفرنسية فى كل شمال أفريقيا من جهة ، وفى الحجاز من جهة أخرى ، كانت تتعلق بالعقبات أو التسهيلات التى كان بونابرت سيضعها فى طريق الحجاج ، وكذلك العداء أو المساندة التى يمكن أن يلقاها من جانب أو آخر منها .

فتأكيد عودة حجاج مكة إلى القاهرة يعد أحد الإجراءات الفورية التى اتخذها بونابرت لإخلاء مداخل ضواحى العاصمة فى الجنوب وفى الشرق ، من مقترحات التسوية التى أرسلها إلى مراد بك ومن العمليات العسكرية التى يقودها ضد إبراهيم بك [١]. وقد انقسم الحجاج إلى عدة مجموعات ، وفى أوائل شهر أغسطس كانوا على مسافة قصيرة من القاهرة ، أو كان بعضهم قد وصل فعلاً . وسرعان ما بدأوا فى الظهور حتى أعطى بونابرت أوامره بأن يحسنوا استقبالهم [٢]. وهكذا تم استقبال أول وحدة منفصلة عن القافلة الرئيسية فى أواخر يوليو . وتلى هذه الوحدة ، فى الثالث من أغسطس ، مجموعة من الحجاج من طرابلس الذين عسكروا فى بولاق على ضفاف النيل . إلا أن القافلة الرئيسية بقيادة أمير الحج [٣] صالح بك ، فقد تم الإعلان عن

(١) راجع لاجونكيير المرجع السابق المجلد الثانى صفحة ٣٤٤ – ٣٤٥ .
(٢) " " " " " " ٣٥١ .
(٣) هذا اللقب الذى يعنى رئيس الحجاج هو اللقب الذى يمنح لقائد القافلة .

وصولها عند ضواحي بلبيس ، فى شمال القاهرة . وكانت معرضة للسقوط فى أيدى إبراهيم بك الذى كان يحوم فى هذه المناطق مع مماليكه . وقام بونابرت من ٢ إلى ١٤ أغسطس بعدة عمليات عسكرية متتالية لمطاردة إبراهيم بك حتى سوريا ، لكنه لم يتمكن من منعه أن يأخذ أمير الحج معه فى هروبه . وعلى الأقل تمكنت بحمل القافلة التى تم اللحاق بها فى بلبيس من العودة إلى القاهرة تحت حماية الجيش حيث دخلوها وقد تقدمتهم فرق الموسيقى الفرنسية. ولم يتغيب منهم إلا أكثرهم ثراء ، أثرياء العصابة الذين خشوا أن يقوم الفرنسيون بتفتيشهم ، فآثروا التعرض لملاحقة العرب لهم بأن ألقوا بأنفسهم فى الصحراء خلف إبراهيم بك وأمير الحج . ووقع لهم ما خشوه فقد أخذ منهم العرب نقودهم ، وحاجاتهم وركائبهم وتركوهم خلاء فى حالة يرثى لها من الحزن . ولم يكتف بونابرت بإنقاذهم من هذا المأزق بأن أرسل لنجدتهم ، وإنما أرسل من يتبعون هؤلاء اللصوص وإعادة الغنائم إلى الحجاج غير الحريصين الذين سرعان ما انضموا فى القاهرة إلى المواكب السابقة .

ومثلما اهتم بونابرت بحماية عودة آخر حاج إلى القاهرة ، اهتم أيضاً بتأكيد سلامة الحج التالى . فقد جرى العرف أن تقوم السلطات المدنية بتعيين رئيس الحج المقبل فى موعد مبكر ، والذى يتعيّن عليه ترتيب الموكب تحت قيادته . منذ ١٦ فروكتيدور (٢ سبتمبر) قام بتولية وظائف أمير الحج لباشا الإسكندرية ، مصطفى بك [١] . وتولى هو شخصياً هذه التولية أمام الديوان ، وقد أعلنها على الشعب بالمدفعية وقد كسى مصطفى بك بالعباءة الخضراء

---

(١) راجع لاجونكيير المرجع السابق المجلد الثالث صفحة ٨ .

المحلاة والمبطنة بالفراء الأبيض [1] . وبعد أن حصل على حلية مرصعة بالماس ، اقتيد أمير الحج الجديد إلى داره على ظهر جواد مطقّم بسخاء ، كان القائد الأعلى قد أهداه له ، ومحاطاً بالجند بينما أطلقت المدفعية ست طلقات راحت سريات القلعة ترددها [2] . وبناء على طلب بونابرت تم إبلاغ شريف مكة وكافة السلطات البربرية ، أى بكوات طرابلس ، وتونس ، والجزائر بخطاب من مشايخ وعلماء القاهرة .

وذلك لأن بونابرت قد أدرك إجمالاً الترابط الفريد للعالم الإسلامى والتداخل المذهل الذى يكونّ مختلف عناصر هذه الكتلة على الرغم من البحار والصحارى . فقد كان يعلم أنه حتى لو كان ذلك التعيين قد تم قبوله فى مصر، فقد كان يمكن أن يأتيه أى تهديد من الإثارات القادمة من الخارج . لذلك امتدت أعماله الدينية وسياسته الإسلامية إلى ما وراء الحدود المصرية ، إلى القسطنطينية ، مقر الخلافة ، وإلى مكة ، المركز الدينى للإسلام ، وإلى سوريا وطرابلس وطوال الساحل الأفريقى حتى المغرب ، فلقد حاول بونابرت أن يحصل على الاعتراف به وبصداقته كحامٍ للإسلام من مختلف السلطات التى تحكم هذه البلدان .

وقد أرسل فى أوائل أغسطس إلى قنصل فرنسا فى طرابلس خطاباً يكلفه فيه إبلاغ إليك أن " رعاياه يحظون بعناية خاصة فى مصر " [3]. وبعد خمسة عشر يوماً كتب إلى نفس القنصل خطاباً ثانياً : " أحيط البك علماً بأننا سنحتفل غداً بعيد مولد النبى بأكبر قدر من الفخامة وأن قافلة طرابلس ستغادر

---

(١) راجع " التاريخ العلمى والعسكرى الخ " المجلد الثانى (الحملة) صفحة ٨٠ .

(٢) راجع ايتيين جوفروا سانت هيلير – " خطابات مكتوبة من مصر " صفحة ٨٤ باريس ، هاشيت ١٩٠١.

(٣) راجع لاجونكيير المرجع السابق المجلد الثانى صفحة ٤٩٤ هامش٢ .

غداً أيضاً ، وقد حميتها وقد امتدحونا . حاول حث البـك علـى إرسـال الكثـير من الخراف إلى الإسكندرية وأن يحيط رعاياه علماً بأن القوافـل تحظـى بحمايتنـا وأننا قد قمنا بتعيين أمير الحج "[1].

ولكي يضمن وصول هذين الخطابين إلى صاحبهما وليضمن مزيداً من تبادل المراسلات بين مصر وطرابلس ، فقد استخدم بونابرت مهارته واستعان بصـالح رئيس حجاج طرابلس ، الشيخ أبو القاسم . وقد أبرم اتفـاق بـين هـذا الشـيخ ومترجم القيادة العليا فنتور ، يقوم بمقتضاه أبـو القاسـم بتسـليم جمـال ومرشـد للمراسلة الفرنسي الذى سيعود إلى القاهرة بإجابات قنصل فرنسا[2] .

وكانت استعدادات الزعيـم الروحـي والدنيـوى الـذى يحكـم مكـة تحت لقـب الشريف ذات أهمية أخرى فى نظر بونابرت غير استعدادات بك طرابلـس . وقـد هدفت سياسة الباب العالى دائما إلى الإقلال بقدر الإمكان مـن التأثير الدينـى لهـذا التابع للسلطان . وقد كان موقف بونابرت على نقيـض ذلـك تمامـاً ، إذ اعتمـدت سياسته على الإعلاء من قدر الشريف غالباً ، الذى يجد نفسه ، بحكـم احتياجاتـه ، فى تبعية الاقتصاد المصرى . كما عمل على تنشيط العلاقات التجاريـة والسياسـية والدينية معه ، بحيث يأمن جانبه عرفاناً بجميل رد اعتباره ومصالحه الشخصية [3].

وقد كتـب لـه بونـابرت مرتـين علـى مـدى يومـين . " وإذ أحيطكـم علمـاً بدخول الجيش الفرنسي إلى مصر ، أعتقد أنه عليّ أن أؤكد لكم نيتى الخالصـة فى أن أحمى حجـاج مكـة بكـل مـا فـى يـدى مـن وسـائل . إن كافـة المسـاجد

(١) راجع لاجونكيير المرجع السابق المجلد الثانى صفحة ٤٩٦ . خطاب ١٨ أغسطس أول فروكتيدور .

(٢) راجع لاجونكيير المرجع السابق المجلد الثانى صفحة ٤٥١ خطاب ١٧ ترميدور ٤ أغسطس .

(٣) راجع برتران " حملات مصر وسوريا " المجلد الأول صفحات ٢٢٧ -٢٢٨ .

والمؤسسات التى تمتلكهما مكة والمدينة فى مصر ستستمر ملكاً لهما كما فى الماضى نحن أصدقاء المسلمين ودين النبى ، ونرغب فى القيام بعمل كل ما يرضيكم ويكون صالحاً للدين " [1] . وفى الخطاب الثانى [2] راح بونابرت يجدد نفس العروض مضيفاً تعيينه لأمير الحج .

إلا أنه كان يخشى أن تكون كلمة أحد الكفرة قريبة لدى شخص فى مثل هذه القدسية لذلك أصر على أن تذهب سلطات عليا دينية مسلمة إلى شريف مكة لتضمن الاستعدادات التى يعلنها . وذلك هو هدف الخطاب الذى طلب من مشايخ وعلماء القاهرة أن يكتبوه له فى ٢٠ ربيع أول ١٢١٣ (١٥ فروكتيدور أول سبتمبر) . وكان عبارة عن سرد لانتصارات الجيش الفرنسى على المماليك ، ومدح فى أخلاقيات ومشاعر الجنرال حيال الدين الإسلامى ، وإحصاء لكل ما أعرب عنه هو وجنوده : كالإجراءات التى اتخذها لتأكيد حرية العقيدة ، وحماية الحجاج ، والاحتفال بالأعياد المعتادة وتعيين أمير الحج ، كما أشاد بما قام به بونابرت والفرنسيون من حل منظمة مالطة الدينية ، وإسقاط سلطة البابا ، ومدح استقامتهم الإسلامية لأنهم يعترفون بوحدانية الله ويبجلون النبى والقرآن . وكان هذا الخطاب المرسل إلى شريف مكة ، يجب أن يكون وفقاً لتصور بونابرت ، بمثابة بيان إذ أنه أعطى أوامر إلى كليبر ليطبعه فى الإسكندرية . ويرسل له ٦٠٠ نسخة إلى القاهرة وأن يقوم بتوزيع ٤٠٠ فى منطقة الجزر [3].

وفى نفس الوقت الذى كان يسعى فيه بونابرت إلى تدعيم مكانته فى

---

(١) راجع لاجونكيير المرجع السابق المجلد الثانى صفحة ٥٣٩ . خطاب ٨ فروكتيدور ٢٥ أغسطس .

(٢) خطاب ١٩ فروتيدور ٢٧ أغسطس . راجع لاجونكيير المرجع السابق المجلد الثانى صفحة ٥٣٩ .

(٣) لاجونكيير المرجع السابق المجلد الثانى صفحة ٥٣٩ .

طرابلس ومكة ومنطقة الجزر ، كان يحاول نفس الشئ مع فلسطين وسوريا . إذ أن خطراً كان يداهمه من هذا الجانب أكثر إلحاحاً وأكثر خطورة من أى جهة أخرى . ففى عكا يوجد بالفعل حاكم شبه مستقل ، على أكبر جزء من سوريا وفلسطين ، وقد اشتهر هذا الباشا باضطهاداته للفرنسيين . إنه أحمد باشا الجزار . ولم تكن صحراء غزة تمثل عقبة أمام قوات ذلك الطاغية الشرس المتعصب والقوى ، وهى قوات متعددة نسبياً ، ومكونة من سلاح مشاة وفرسان وكان لا يكف عن التدخل فى المنافسات بين بكوات مصر وأرسل جيشه إلى مصر . فإذا ما تمكن من تبنى قضية إبراهيم بك ، اللاجئ فى مقاطعاته ، وأن يأخذ بالدفاع عن حقوق السلطان ، أو حتى حقوق الإسلام ، فيمكنه أن يوجد فى موقف يؤدى إلى مضايقات جادة للفرنسيين . لذلك سارع بونابرت ليؤكد حسن نواياه للجزار . فكتب له قائلاً [1] : " حينما حضرت إلى مصر لأحارب البكوات فقد قمت بشئ عادل ومطابق لمصالحك ، بما أنهم كانوا أعداءك .. فلم آت مطلقاً لشن الحرب على المسلمين . ويجب أن تعرف أن أول ما اهتممت به فى مالطة كان الإفراج عن ٢٠٠٠ تركى من القابعين فى العبودية منذ عدة سنوات . وعند وصولى إلى مصر قمت بطمئنة الشعب وحميت المفتين والأئمة والمساجد . ولم يحظ حجاج مكة أبداً بمثل الحفاوة والصداقة التى استقبلوا بها كما احتفلنا لتونا بمولد النبى ببذخ أكثر من أى وقت مضى " . وقد سلم هذا الخطاب الضابطُ ، رئيس السرية بوفوازان ، المكلف بأن يشرح شخصياً للباشا أن بونابرت راغب فى أن يعيش معه فى سلام وأن يقوم ، فى مقابل ذلك ، بكل الخدمات التى يمكن أن يتطلبها

(١) فى ٥ فروكتيدور ٢٢ أغسطس . راجع لاجونكيير المرجع السابق المجلد الثانى صفحة ٥٣٤ .

حسن سير التجارة والصالح العام . وأنه ليست لديه أية نية ليغزو القدس ، وأخيراً إن المسلمين ليس لديهم أصدقاء أكثر من الفرنسيين . والخطاب فحسب هو الذى وصل إلى الجزار ، إذ أنه رفض استقبال بوفوازان Beauvoisin وأعاده إلى مصر دون أن يستمع إلى مبرراته [1] .

وتم إسناد مهمة مماثلة إلى رسول آخر هو مايى دى شاتورنو Mailly de Châteaurenaud ، الذى أرسله بونابرت إلى اللاذقية وحلب [2]. " نحن لم نعد من أولئك الكفرة لأزمنة البرابرة الذين كانوا يأتون لمحاربة عقيدتكم ، نحن نعرف أنها سامية ، وسندخلها وقد أتت اللحظة التى يتجدد فيها الفرنسيون وسيصبحون أيضاً مؤمنين حقيقيين " . هكذا تحدث بونابرت إلى باشا حلب فى الخطاب الذى حمله مايى دى شاتورنو[3].

وفى نفس أثناء هذه المحاولات المتتالية مع السلطات التابعة للسلطان تتواكب المحاولات التى أشرنا إليها سالفا للعمل فى نفس مركز الامبراطورية ، فى القسطنطينية ، والدخول فى علاقات مباشرة مع الباب العالى .

أى أن المراسلات قد امتدت عملياً إلى كل العالم الإسلامى العثمانى ومن خلالها، فإن السياسة الإسلامية لبونابرت ، إضافة إلى الخطابات التى سيرسلها إلى تيبو صاحب Tippoo Sahib ، وسلطان دارفور ، وسلطان المغرب ، قد هدفت إلى الاتصال بمجمل العالم الإسلامى ، باستثناء فارس وآسيا الوسطى .

---

(١) راجع لاجونكيير المرجع السابق المجلد الثانى صفحة ٥٣٦ - ٥٣٩ " والتاريخ العلمى والحربى إلخ المجلد الثانى (الحملة) صفحة ٢٤٧.

(٢) راجع لاجونكيير المرجع المذكور مجلد٣ صفحات ٦٦- ٦٨ .

(٣) التاريخ العلمى والعسكرى إلخ المجلد الثانى (الحملة) صفحة ٢٤٦.

ومثل هذه المراسلات الواسعة النطاق ، والتخطيط لمثل هذه السياسة الخارجية العريضة ، كانت بلا شك تتعدى الاحتياجات الفورية لحماية مصر من التهديدات أو المؤثرات الخارجية . وبعيداً عن هذا الاهتمام الدفاعي فإنها تتضمن هدفاً أكثر إيجابية ستؤكده أفعال وعبارات لبونابرت تكشف عن وجودها في ذهنه . فحينما تسلم من الإدارة مهمة تنفيذ المشروع الذى اقترحه تاليران للقيام بحملة على مصر ، فلم يمنع بونابرت خياله ، الذى انجذب إلى مصر والشرق أثناء حملته على إيطاليا ، من أن يوسع المهمة التى أُسندت إليه . فدون حتى أن يتحدث عن إمكانية حملة على الهند ، والتى لعله كان قد حصل على موافقة باريس بها، ألم تكن له نظرة حول الشرق ليست قاصرة على حدود مصر ؟ إن مشروع التدخل فى سوريا سواء بموافقة الجزار ، إذا ما استطاع أن يكسبه إلى مصالحه ، أو بواسطة السلاح فى حالة رفضه ، كان على أى حال فى البداية من بنات أفكاره : فلا يمكن أن نفسر بطريقة أخرى العرض الذى عرضه على مراد بك ، منذ أول أغسطس ١٧٩٨ ، بمنحه إمارة فى سوريا إذا ما استطاع الجيش أن يمد عملياته إلى هناك . وإذا ما كان الحظ قد سانده أمام عكا ، ترى أى تطور كان سيضفيه على مهمته الشرقية ؟ أكان بسبب القيمة الجوهرية لسوريا أنه صاح إن الحظ قد خانه أمام عكا ؟ من الصعب الإقرار بذلك. إذ يبدو جلياً أن بونابرت فى الواقع قد رأى فى غزو مصر الشرط المبدئى والمرحلة الأولى لمشروع أكثر اتساعاً وأكثر ضخامة ، والذى لم يعرب عنه أبداً بوضوح وإنما كان يحاول أن يخلق فى الشرق البحر أوسطى بعد أن يقوم بتحويله ، عملية تحول رهيب فى صراع فرنسا الجمهورية مع أوربا الملكية . وأن مصر لم تكن بالنسبة له سوى قاعدة عمليات لعملية أكبر بكثير من الحملة المبدئية ، وفى نفس الوقت العتلة التى سيمكن بواسطتها

تحريض العالم الإسلامى بـأثره . وأن الأمـر ليـس مجـرد حمايـة مصـر مـن دعايـة معادية للسيطرة الفرنسية ، وإنما تمهيد الطـرق لأهـداف لاحقـة سـتؤدى إليهـا سياسته الإسلامية بإطلالها على الخارج ، بحثاً عن خلق جو من التأييد والتعاطف والثقة حول نفسه ومصيره فى الإسلام بأسره .

لقد رأينا للتو ما ادعاه بونابرت لنفسه لدى السلطات الإسلامية فى أفريقيـا وآسيا ، والصخب الذى احتفل به بمولد النبى فى القـاهرة . فالأهميـة المضفـاة علـى الاحتفـالات المحليـة التقليديـة والعنايـة بهـا مـن السـمات المميزة لعملـه السياسى . والعالم الإسلامى تعتريه مناسبات دينيـة تعـد فـى مصـر ، وفـى كـل الأراضى الإسلامية ، مناسبة لاحتفالات شعبية كبرى . ومثلمـا هـو كـائن فـى كل مكان آخر ، فإن التقاليد المحلية قد أقـرت عـادة الأعيـاد الخاصـة بـالبلد . وحياة الأهالى لها إيقاعها الناجم عن العودة الدورية لهذه الاحتفـالات العامـة ، والتى يعد إلغاؤها فـى حـد ذاتـه نحسـاً ودليـلاً علـى قلاقـل عميقـة ، ولم يهتـم بونابرت بإبعاد سيطرته عن مثل هذه الآفات التى كان سيؤدى إليها تـرك مثـل هذه التقاليد التى يبجلها الشعب فحسب ، وإنما حاول أن يجعلهـا تسـتفيد مـن الشعبية التى يمكن أن تكسبها بالبريق المنفـرد لمثـل هـذه الأعيـاد ، والتـى كـان يزيدها مساهمة السلطات والفرق العسكرية الفرنسية .

ولقد أتيحت له مثل هذه الفرصة بعد دخولـه مصـر بـأقل مـن شـهر . فـالنيل ، الذى يعد فياضانه العنصر الأساسى للرخاء الزراعى فـى مصـر ، كـان منـذ القـدم، لدى المصريين ، مجال احتفال هو أقرب من الطقس الدينـى الـذى ظلـت ذكـراه – الذى احترمها الإسلام – تتواصـل كعـادة يحتفـل بهـا بصخـب عنـد بدايـة فيضـان الأراضى . فعندما يصل فيضان النهر الذى يبدأ فى يونيو ، إلى ارتفاع ١٦ قدماً فى

المقياس الموجود فى الطرف الجنوبى لجزيرة الروضة ، يفتح الهويس المقام لحجز المياه عند مدخل قناة شق القاهرة . إن فتح هذا السد ، ودخول المياه فى هذه القناة أو " الخليج " تصاحبه حفلات رسمية وبهجات شعبية . وحينما وصلت الفترة العادية لهذه الاحتفالات ، كان بونابرت عائداً لتوه من حملته ضد إبراهيم بك ، كما علم من جهة أخرى بنبأ رهيب هو الفاجعة البحرية فى أبى قير التى تركت الجيش بلا أسطول ، ومقطوع الصلة مع وطنه الأم ، ومحبوس فى مصر . فتعويض الانعكاس المعنوى لهذه الهزيمة على الجيش وعلى الأهالى ، كان سبباً بالنسبة له ليشارك ويشرك فرقه فى احتفالات " عيد النيل " .

ففى أول فروكتيدور (١٨ أغسطس)[١]، فى السادسة صباحاً ، خرج ممتطياً جواده ، ومحاطاً بحرس يتداخل فيه ذلك الخليط الذى يحيه — جنرالاته ، وقيادته العامة ، كيايا الباشا وأعضاء الديوان ، والمولىلا [٢]، وأغا الانكشارية وغيرهم من أعيان البلد . وقد اصطف جزء من الحامية تحت السلاح بطول القناة ، وستة أساطيل المراكب المزينة بالأعلام على شطآن النيل . وقام سلاح المدفعية فى الموقع وفى السكنات بتحية وصول الموكب إلى المقياس وإعلان إتمام الطقس الغريب الذى بمقتضاه يتم إلقاء تمثال امرأة ، هى عروس النيل ، فى المياه . وانضمت إيقاعات الموسيقى الفرنسية إلى الموسيقى العربية بينما كان العمل جارياً لكسر السد .وقام بونابرت بنفسه بتسليم الجائزة لطاقم أول

---

(١) لقصة هذا الاحتفال راجع لاجونكيير المرجع السابق المجلد الثانى ، صفحة ٤٨٠ ، و" التاريخ العلمى والعسكرى إلخ .." المجلد الأول (الحملة) صفحات ٣٧٤ - ٣٧٥ ، ولم يكن الاحتفال بزيادة النيل من قبيل الطقس الدينى كما زعم .

(٢) كان من ضمن مهام المولىلا الحفاظ على مقياس النيل . راجع فى سلسلة " لكون " ، " مصر تحت الاستعمار الفرنسى " بقلم أميديه ريم صفحة ٦٤ ، باريس دار نشر ديدو ١٨٤٨ .

مركب دخلت القناة ، بينما ألقى إلى الجماهير حفنات من الملاليم ، وألبس المولا العباءة السوداء ، والنقيب رجا [١] العباءة البيضاء ، كما قام بتوزيع ثمانية وثلاثين قفطاناً لأهم المسئولين ، وحضر كتابة المحضر الخاص بكسر السد وإثبات ارتفاع منسوب الفيضان إلى ١٦ ذراعاً وخمسة قراريط ، وشكر ا لله على هذه النعمة [٢]. وقد فرح الشعب بوفرة الفيضان الدال على محصول وفير، وجرت الجماهير لتساهم فى الحفل بالصيحات والتزاحم ، كما صاحبت القائد الأعلى العائد إلى قصره بالأزبكية ، فى موكب صاخب من الصياح بل والهتافات . وقد صاحوا من حوله " نعم ، لقد أتيت لإنقاذنا بإذن ا لله الرحيم ، لأنك حصلت على النصر وعلى أجمل فيضان جاء منذ قرن ، وهما نعمتان لا يسندهما إلا ا لله " . وفى المساء ، كانت شوارع القاهرة المضاءة تفيض بالمارة السوريين والأقباط واليونانيين ، أما المسلمون فقد ظلوا فى بيوتهم [٣].

وبعد عدة أيام أتى موعد مولد محمد ، وهو مناسبة احتفالات لا تقل عن أربعة أيام وليال . وباندهاشه لعدم رؤيته بداية الاستعدادات للاحتفال كالمعتاد، سأل بونابرت عن السبب وعلم من الشيخ البكرى بأنهم يستعدون بمزاعم خاطئة ، هى فى الواقع ناجمة عن سوء نيتهم ضد الفرنسيين ، لوقف تقليد الاحتفال بهذا العيد [٤]. فأمر على الفور بإقامة هذا الاحتفال ، واتخذ بنفسه

---

(١) موظف مسئول عن توزيع المياه . راجع أميديه ريم المرجع السابق صفحة ٦٤ .

(٢) وكما فيما مضى – فإن هذا الحصر يلزم المصريين عندما يكون الفيضان طيباً بدفع المسيرى للديوان الأعلى إلى جانب حصة سيدنا السلطان " والحبوب الواجبة للأماكن المقدسة فى مكة والمدينة . راجع لاجونكيير المرجع السابق المجلد الثانى صفحة ٤٨٠ .

(٣) راجع عبد الرحمن الجبرتى ترجمة كاردان صفحة ٢٦ .

(٤) راجع عبد الرحمن الجبرتى ترجمة كاردان صفحة ٢٧ ,

الاستعدادات لإضافة مزيد من البريق بأن يشارك فيها شخصياً . وفى أول يوم (٢ فروكتيدور ١٩ أغسطس) ألبس الشيخ البكرى عباءة من الفراء الأبيض الخاصة بمنصب كبير الأشراف [١] ، الخالى بسبب هجرة آخر من كان يمثله . وقد تم هذا التنصيب فى نفس بيت الشيخ ، أمام حضور قرابة المائة من رفاقه فى الدين ، وجلسوا القرفصاء فى دائرة على السجادة ، مربعين سيقانهم ، ممسكين بالمسبحة وجسدهم يتأرجح إلى الأمام والخلف مع مصاحبة قراءة آيات القرآن . وقد جلس مثلهم على وسادة ملقاة على الأرض القائد الأعلى ، وقد حافظ طوال مدة هذه الابتهالات الطويلة على هيئة التقى والورع . وما أن انتهت الصلاة حتى شارك كضيف للشيخ فى مأدبة على الطريقة التركية ، ملتزماً بالعادات والتقاليد المحيطة للولائم الشرقية ، التى يستغنون فيها عن الشوكة والسكينة . كما تعلم بعد ذلك ملاذ الشبك ، الغليون المحلية ، والنرجيلة والقهوة التركى . وفى المساء ، بعد استعراض عسكرى باهر ، انتقلت القيادة العامة على أنغام الموسيقى العسكرية وأضواء الشعلات عند الشيخ البكرى . وانطلقت المدافع تحية لمحمد بينما كانت السُريجات تضاء فى المدينة . وما أن أتى الليل حتى انطلقت نيران ألعاب الصواريخ فى ميدان الأزبكية ، ولعلها كانت أول مرة يراها المصريون .

وظل الصخب الغريب ، خليط من البهجة الدنيوية والحماس الدينى ، فى الشوارع والميادين أثناء الليل والنهار حتى ٢٣ أغسطس (٦ فروكتيدور) .

---

(١) رئيس أشراف القاهرة . راجع أميديه ريم المرجع السابق صفحة ٦٥ . ويزعم المؤلف أن بونابرت كان مرتدياً فى هذه المناسبة الزى التركى وعلى رأسه العمامة ومرتدياً الخف ، وأنه قرأ القرآن مع المشايخ وهو يتأرجح مثلهم برأسه وجسده . إن هذه التفاصيل ملفقة .

مروضو دببه وقرود ، وساحرو ثعابين ، راقصون وراقصات ، مغنون ومغنيات، لاعبو أقداح ، حواة ، لاعبو سيوف ، دراويش يهللون ويدورون ، أولياء أو " نسّاك " ، قذرين ومرتدين الهلاهيل ، يلفتون أنظار الشعب اللاهى أو المتعظ [1].

وقد كتب بونابرت إلى كليبر [2] قائلاً : " كل هؤلاء الناس كان من الممكن أن يتصوروا أننا جئنا بنفس فكرة سان لوى والتى يأتون بها حينما يدخلون الدول المسيحية " . ونرى من كل الوقائع التى تقدمت إلى أى مدى امتدت جهود بونابرت ليبدد هذا الشك .

وتم الاحتفال بمولد محمد فى مصر بأسرها فى نفس الوقت مع القاهرة ، وحظى بنفس الرعاية من جانب السلطات الفرنسية حينما امتد الاحتلال . أما فى الإسكندرية وعلى حد قول فولفو تاريخ للحملة [3] " فإن كليبر ، المريض والغاضب ، قد شارك بالكاد غصباً عنه فى هذه المسرحية الهزلية الدينية " . وسواء عن طيب خاطر أو غصباً عنه فقد شارك فيها على أى حال . لأنه فى ٥ فروكتيدور ذهب مع قيادته العامة لتناول العشاء عند "الكومندان المسلم"[4]، الذى جامله بصفة خاصة بأن قدم له "طبقاً من الأرز ذا ثلاثة ألوان". وفى اليوم الثالث أمر بإطلاق ثلاث طلقات مدافع احتفالاً بمولد النبى

(١) راجع لاجونكيير المرجع السابق المجلد الثانى صفحات ٤٨١ - ٤٨٢ ، نقلا عن يوميات دى دترول. التاريخ العلمى والعسكرى " إلخ المجلد الأول (الحملة) صفحات ٣٧٧ - ٣٧٨ و" يوميات " فيليبيه دى تراج صفحات ٧١ -٧٢ باريس بلون ١٨٩٩ .

(٢) ١٢ ترميدور ٣٠ يوليو وارد فى لاجونكيير المرجع السابق المجلد الثانى صفحة ٣١٦ .

(٣) " التاريخ العلمى والعسكرى " إلخ ، المجلد الأول (الحملة) صفحة ٣٧٨ .

(٤) لا شك أنه كان أغا فرقة الانكشارية (المترجمة) .

وأضاء مبنى القيادة العامة ، وفى اليوم التالى رد بدوره على العزومة بأن دعى السلطات المحلية ، أعضاء الديوان والأغا ، ولكى لا يخل بالآداب العامة حيال ضيوفه المسلمين، الذين قد تصدمهم رؤية النبيذ على مائدتهم ، فقد وضع لنفسه مائدة مستقلة بجوار مائدتهم [١]. وفى رشيد ، كان المفتى قد امتنع ، مثل الشيخ البكرى فى القاهرة ، عن اتخاذ التدابير المعتادة لإقامة الاحتفالات حتى يوحى للشعب بأن الفرنسيين قد منعوها [٢] . فأمره منو بأن يلتزم بالعرف المتبع ويساهم بنفسه فى ازدهار هذه الحفلات بأن يقيم وليمة عشاء على الطريقة التركية لمشايخ البلد مصحوبة بفرقة موسيقى عربية ورقص من أجل الشعب[٣]. وتوجه وبصحبته ضباطه وبعض العلماء والفنانين الموجودين آنذاك فى رشيد ، إلى الحفل الليلى الذى أحياه من أطلق عليه فيفان دينون "أول حاكم مدنى"[٤]: وكان حفلاً عربياً ، منظماً على الطريقة المصرية فى الطريق وقد تحول إلى قاعة استقبال بواسطة الخيام والسجاد واللمبات . وفى هذا الإطار غير المتوقع ، أمضى الجنرال ورفاقه الفرنسيون سهرة ممتعه حتى الصباح على مشاهدة الرقص وأنغام الموسيقى المحلية [٥].

وهكذا تم الاحتفال فى مصر ، وتحت سيطرة أجنبية فى طريقها إلى الاستقرار، بالأعياد التقليدية ، أعياد البلد . ولم تكن هذه الأعياد وحدها التى حاول بونابرت من خلالها البحث عن إرضاء الذوق التلقائى للمصريين

(١) راجع لاجونكيير المرجع السابق المجلد الثانى صفحة ٥٠٧ ، وفقاً ليوميات كليبر فى القيادة العامة .

(٢) فيفان دينون " رحلة فى مصر العليا والسفلى" المجلد الأول الطبعة الصغيرة صفحة ١٣٢.

(٣) لاجونكيير المرجع السابق المجلد الثانى صفحة ٥١٨ .

(٤) ربما كان شيخ البلد .

(٥) راجع " التاريخ العلمى والعسكرى " إلخ المجلد الأول (الحملة) صفحات ٣٧٩ – ٣٨٥ .

للاحتفالات . ففى أول فانديمير (٢٢ سبتمبر) فى عيد تأسيس الجمهورية ، أقيم احتفال فرنسى كبير ، حاول القائد العام من خلاله أن يلهب مشاعر الوطنية لدى قواته ، وأن يبهر فى نفس الوقت خيال السكان المحليين .

وقبل الموعد بشهر تقريباً [١] أعلن عن الاحتفال وحدد الإجراءات الأساسية فى أهم مراكز الحامية . وقد أضاف أعتى شهود مجد مصر القديم إسهامهم فى ذلك اليوم إلى المجد الشاب للجيش الفرنسى : " إن حامية الإسكندرية ستقيم حفلها حول عمود السوارى " الذى ستعلوه الأعلام ذات الألوان الثلاثة . كما " ستضاء مسلة كيلوباترة " . وفى القاهرة ، بعد الاستعراض الذى أقيم فى ميدان الأزبكية ، " توجه وفد من كل سرية ليغرس العلم الثلاثى الألوان فى أعلى قمة الهرم الأكبر " . أما " الفرق التى فى مصر العليا فسوف تقيم احتفالاتها وسط أنقاض طيبة " .

وبعد تنسيق شديد الدقة ، أقيم الاستعراض العسكرى فى القاهرة فى إطار يجمع على حد عبارة عزيزة على بونابرت ، بين الغرب والشرق ، بين الجمهورية الفرنسية وأتباعها الجدد المسلمين [٢]. وفى الساحة الشاسع ، الذى يضم محيطه من الأعمدة أكثر مما لدى فرنسا من محافظات ، أقيم مدخلان ، أحدهما قوس النصر ، الذى رسم عليه الفنان ريجو Rigo لوحة لمعركة الأهرامات ، والآخر بوابة كتب عليها بالعربية "**لا إله إلا الله محمد رسول الله**". وعلى واجهتى المسلة القائمة فى منتصف هذا الساحة كتبت بالفرنسية العبارات التالية : " إلى الجمهورية

---

(١) فى فروكتيدور ٢٨ اغسطس . راجع لاجونكير المرجع السابق الثالث صفحات ٢٠ - ٢١ .

(٢) راجع فيفان دينون المرجع السابق صفحة ١٣٣ ، ولاجونكير المرجع السابق المجلد الثالث صفحات ٢٢ - ٢٣ .

الفرنسية العام السابع " ، و " فى ذكرى طرد المماليك ، العام السادس " . وعلى الواجهتين الأخريين نفس العبارات باللغة العربية . وفى هذا الإطار الغريب ، قام بونابرت بدعوة المشايخ أعضاء ديوان القاهرة ، وممثلى دواوين الأقاليم ، وأغا الانكشارية ، وأمير الحج ، لمشاهدة احتفال صمم من أجل التأثير فى آن واحد على الفرنسيين الذين يشاركون فيه ، وعلى الأهالى الذين يشاهدونه ، وذلك سواء فى الوفد المحيط به ، أم وسط الجماهير الكثيفة المتراصة حول الأزبكية .

وكل فرق الحامية وقد أضيفت إليها الفرق المحيطة ، بأجمل ما لديها من ثياب ، قد اصطفت فى هيئة مربع حول الساحة في مواجهة المسلة الرئيسية . وبعد أن قام بونابرت باستعراضها ، جلس على المنصة المرتفعة عند أسفل المسلة ، بين سبعة هياكل قديمة تعلوها الرايات ، قامت كل الفرق الموسيقية المجتمعة بتنفيذ مارشات عسكرية وألحان وطنية . ثم أقيمت تحت أمر القائد العام تدريبات نارية . وضمت الصفوف فى كل سرية على صوت طلقات النار، ثم دخلت الفرق داخل الساحة واصطفت بانتظام لتستمع إلى قراءة البيان الذى وجهه هم القائد العام الذى راحوا يحيونه بصيحات : " تحيا الجمهورية ! " ثم أحضرت كافة الأعلام والألوية عند المنصة لاستلام الشارات التى تذكر بانتصارات الجيش على المماليك ، من أيدى بونابرت . وبعد عزف نشيد " المارسييز " ونشيد " الرحيل " ونشيد آخر كتب كلماته بارسفال جرانميزون ولحنه ريجيل ، انتهى الاحتفال العسكرى بعرض مهيب .

ثم أقيمت مأدبة فى ذلك اليوم بالقيادة العامة ، جمعت علية القوم المحليين والسلطات الفرنسية العسكرية والمدنية . وكانت النقوش والرسومات التى تزّين قاعة الاحتفالات ، مثلها مثل النقوش التى زّينت المكان الذى جرى فيه

الاستعراض ، ترمز إلى تقابل العنصرين اللذين يلتقيان . " فمن كل جانب كانت الرايات التركية ترفرف متداخلة مع الرايات الجمهورية ، وفى أعلى حزم الأسلحة تتداخل الهلال وقبعة الحرية ، القرآن وحقوق الإنسان " [١] . ورفع برتيبه النخب قائلاً : " فى طرد المماليك وسعادة شعب مصر " . وبعد الظهر أدت مباريات الخيل فى الأزبكية إلى مواجهة الأبطال العرب والفرنسيين. وفى المساء ، بعد الألعاب النارية ، حولت الإضاءات الباهرة الميدان إلى قاعة رقص شاسعة ، حيث راح الجند يرقصون على أنغام الموسيقى النحاسية التى يتخللها من وقت لآخر طلقات المدافع .

وعلى حد قول المعاصرين [٢] – الذين تتسم أقوالهم باللهجة المزدرية لتعليقات عبد الرحمن الجبرتى التى يخص بها هذا الحفل الضخم – فإن جماهير الأهالى الفضولية والمتمالكة ، قد حضرت هذه الأحداث دون أن يبدو عليها الانبهار . وعلى أى حال إنها لم تنبهر أبداً إلا بعدد فرق الجيش ، ودقة تحركاتهم وتطور أسلحتهم . وهذه النتيجة غير الكاملة وإن كانت مجدية ، هى ما حاول الاستعمار الحديث الحصول عليه ، منذ ذلك الوقت ، بمثل هذه الاستعراضات للقوات .

ونفس الإجراءات وفى الحدود التى سمحت بها الإمكانيات المحلية ، فإن نفس الاستعراض العسكرى قد أجرى بلا تهديد ، بمناسبة العيد السابع للجمهورية الفرنسية ، فى كافة النقاط المحتلة فى مصر ، ونفس الجهود لإظهار الأخوة الفرنسية المصرية ، قد بذلت فى كل مكان لنفس الغرض .

---

(١) التاريخ العلمى والعسكرى إلخ المجلد الأول (الحملة) صفحة ٣٨٣ .

(٢) راجع خاصة " التاريخ العلمى والعسكرى المكتوب استناداً إلى شهادات عيان معاصرين .

وبفضل وحدة وجهات النظر التى استطاع بونابرت أن يقيمها ويحافظ عليها بينه وبين ضباطه ، فقد كانت سياستهم المحلية بصفة عامة مماثلة لتلك التى مارسها هو فى القاهرة .

ففى نفس الوقت الذى كانت تقع فيه عملياتهم الحربية أو البوليسية ضد مراكز الثوار ، فإن حكام الأقاليم نفذوا التنظيمات الإدارية التى أملاها بونابرت ، وأقاموا الدواوين ، وقاموا بتعيين الآغاوات ، وكونوا فرق الانكشارية . ولقد أصر بونابرت على ألا يبدأوا بالخطأ من جانبهم فى علاقاتهم مع الأهالى . وعندما كان يلاحظ غلطة من جانبهم أو خطأ فى التكتيك ، كان يبادر بلومهم .فكتب إلى زايونشك قائلاً [1] " لا أقر قيامك باعتقال الديوان دون أن تتأكد إن كان مذنباً أم لا ، وأن تقوم بإطلاق صراحه بعد اثنى عشرة ساعة . إنها ليست الوسيلة التى ستكسبهم إلى صفك . يجب أن تدرس الشعوب التى توجد لديها ، وأن تميز من هم أكثر ميلاً كى تستعين بهم أو تستخدمهم ، يمكنك من وقت لآخر القيام بالردع أحياناً لكن بصورة عادلة وقاسية ، لكن لا تقم أبداً بما يمكن أن يوصف بالنزوة أو الاستخفاف " .

وحينما كان أحد الزعماء المحليين ، الشديد التأثير وسط معاصريه ، كان يبدى استعداداً للتعاون مع الغزاة ، لم تهمل أية وسيلة لوضعه فى جانب مصلحة الفرنسيين ، حتى وإن كان قد أبدى تجاههم فيما مضى أية مآخذ ، وذلك كان الوضع مثلاً مع الأمير إبراهيم الذى عينه كليبر مسئولاً عن إدارة دمنهور وأربع قبائل مجاورة ، وقد أسند إليه رتبة أغا ومرتباً مناسباً [2] .

---

(١) راجع لاجونكيير المرجع السابق المجلد الثالث صفحة ٧٨ ، ٢ فروكتيدور – ٢٨ أغسطس .

(٢) " " " " " " " ٧٨ ، ٢ فروكتيدور – ٢٨ أغسطس .

وحينما بدأ الموظفون المحليون يتصرفون بصواب ، سرعان ما تمت مكافأة أمانتهم وإخلاصهم كما تم تشجيع حماسهم بكافة أنواع الوسائل الطيبة . وتلقائياً ، بل وسباقاً لأوامر بونابرت ، قام كليبر بمنح مرتباً لأعضاء ديوان الإسكندرية (١).

وقد كان أغا الانكشارية يرغب فى عباءة وفرس مزخرف على الطريقة التركية ، فقد قام كليبر برجاء بونابرت أن يرسلهما له من القاهرة ، وقد أصر على أن تعاد له الممتلكات التى كانت المماليك قد صادرتها منه (٢) .

وتمت حماية حجاج مكة فى كل مكان مثلما تمت حمايتهم فى القاهرة . وكان ٢٦٠ حجاً من طرابلس أبحروا عن طريق النيل من القاهرة إلى رشيد ، فقام منو بإركابهم على أربعة مراكب إلى الإسكندرية تعلوها الرايات الثلاثية الألوان . وبما أن الأسطول الإنجليزى قد لاحظهم وأجبرهم على العودة إلى

(١) " كليبر وحياته ومراسلاته " بقلم جال بايول ، باريس ، ديدو ١٨٧٧ صفحة ٣٠١ قرار ٢١ أغسطس ١٧٩٨ : " كليبر ، إلى الذين هم الأكثر أمانة والأكثر استقامة بين الرجال ، إلى الذين هم زينة كل العلماء ، إلى الذين يرتبون وينظمون بأحسن صورة ممكنة كل المسائل المتعلقة بسكان الإسكندرية .. إلخ ... إلخ ... اعلموا أيها الأصدقاء المبجلون أنه أخذاً فى الاعتبار أن الأوقات التى تمضون بها الشئون العامة يجب بالطبع أن تؤخذ على حساب أعمالكم الخاصة ، وأنه بالتالى من العدل والإنصاف أن نعوضكم ، قررت أن يدفع لكم فى نهاية كل شهر مكون من ٣٠ يوما ما يلى :

إلى الوجيه حاج حسن أبو عوف ٤٠٠٠
" " إبراهيم أبو العبير ، منفذ القوانين ٤٠٠٠
" " مصطفى الصران " " ٤٠٠٠
إلى الوجيه الحاج حسن أبو ال.. " " ٤٠٠٠
" " الحاج حامد ازن أغلو " ١٤٠٠
" " الحاج قاسم زكبوف " ١٤٠٠
" " الحاج محمد ضيا " ١٤٠٠
وإلى الساعيين .... ١٨٤٨ .

(٢) راجع بايول المرجع السابق صفحة ٣٠٣ ، ٢٩ أغسطس ١٧٩٨ .

داخل الميناء ، فقام منو ياركابهم هذه المرة تحت رايات مغربية . وعند وصولهم الإسكندرية ، استقبلهم كليبر وزودهم بسفينة كبيرة ليبحروا إلى طرابلس [1]. ومثله مثل بونابرت ، فقد انتهز الفرصة ليرسل إلى قنصل فرنسا مع هذه السفينة خطاباً بنفس فكرة خطابات القائد الأعلى [2].

وبخلاف حالات الاشتباكات ، فإن أمن الأفراد واحترام الملكيات قد تمت حمايتها ضد العنف والتحقير والاختلاس . وقد تزود قادة الجيش الفرنسي في مصر بروح الإنسانية والأمانة والأخلاقيات العالية . وعندما أدى الاضطرار إلى فرض ضريبة على المسلمين ، بدلاً من العقوبة ، كان كليبر أول من اقترح على بونابرت أن يعيدها لهم عندما تتحسن تصرفاتهم العامة [3]. وعندما وجد أن الانتقامات التى أمر بها بونابرت كانت شديدة للغاية قام بمناقشتها معه بحيث أدت إلى خلاف بينهما . وكتب منو فى نفس الوقت : " لا شك أننا سننجح أكثر إذا ما حكمنا بالعدل والأخلاق ... إن استقرارنا فى مصر متعلق بأخلاقيات القادة الفرنسيين " [4].

---

(١) راجع لاجو نكيير المرجع السابق المجلد الثانى صفحة ٥٠٦ وبايول المرجع السابق صفحة ٣٠٠ .

(٢) راجع بايول المرجع السابق صفحات ٣٠٣ – ٣٠٤ . " المواطن القنصل ، إن غزو مصر عن طريق جنود الجمهورية الفرنسية لا يجب أن يضع عقبات فى علاقاتنا السياسية والتجارية مع السلطات البربارية ، بل على العكس من ذلك ، يجب أن تحييها وتوسعها . إن سكان هذه الشطآن سيجدون دائماً لدى الحكومة مساندة وحماية ، وكما فيما مضى ، فإن ديانة المسلمين ستحترم بشدة . لكن اليوم فلا هم ولا ثرواتهم سيتعرضون للابتزاز الذى كان يقوم به المماليك المخادعون الأشرار ، الذين كانوا يقومون به أيضاً ضد الحجاج أثناء رحلتهم إلى مكة وضد الذين كانوا يعيشون هنا من نتاج صناعتهم وتجارتهم " .

(٣) راجع بايول المرجع السابق صفحة ٢٩٩ – ١٩ أغسطس .

(٤) ٦ فروكتيدور ٢٣ أغسطس و٨ فروكتيدور ٢٥ أغسطس راجع لاجونكيير المرجع السابق المجلد الثانى صفحات ٥١٧ – ٥١٨ .

وقام نفس الجنرال بالكتابة إلى المنفذ العام سوسى Sucy [1] ، وهو غير راض عن الطابع الضريبى لبعض الإجراءات الإدارية قائلاً : " مع سكان مصر يجب أن تكون صارماً عادلاً إنساناً وعبداً لكلماتك . إذ كان القادة فى كل مكان هنا لديهم أخلاقيات ويعاقبون بقسوة صارمة كل المبذرين سنقيم هنا أول مستعمرة نموذجية فى العالم . وإذا ما وقع العكس ، وإذا ما كان القادة سواء العسكريون أو غيرهم ، وكذلك مرؤسوهم ، ينظرون إلى هذا البلد على أنه أرض للالتهام، فلن نبق هنا أكثر من ستة أشهر ولن نصحب معنا إلا الخجل وكراهية شعوب مصر " . ومن بلبيس فى الشرقية ، أرسل رينييه إلى بونابرت قائلاً : " لست على استعداد لأن أتحمل من حولى أى نصب أو تزوير ، خاصة فى بدايات تنظيم البلد الذى يجب علينا أن نكتسب جانب الأهالى بفضل إدارة رشيدة"[2]. وعند عثوره على مآخذ فى إدارة الجنرال فيال Vial فى دمياط لم يتورع الجنرال دوج Dugues عن إعلانها بلا أى تأخير لبونابرت وأنهى تقريره بهذه الكلمات: " إن الشخص الذى يتركك تجهل أن الأتراك يكرهوننا فى دمياط يكون مذنباً، مثله مثل الشخص الذى يتركك تجهل السبب " [3]. وفى مصر العليا وبينما ديزيه Desaix كان ما زال فى فترة الغزو ، فضح بعبارات ثائرة حركات بعض اللصوص الذين حاولوا سرقة بعض البضائع من سوق المنيا دون أن يدفعوا ثمنها، وقام باتخاذ إجراءات صارمة ضد هؤلاء الحقراء [4].

(١) ٧ فاندمير – ٢٨ سبتمبر . راجع لاجونكيير المرجع السابق المجلد الثالث صفحة ١١٩ .

(٢) ١٧ فروكتيدور – ٣ سبتمبر . راجع لاجونكيير المرجع السابق المجلد الثالث صفحة ١٧٧ .

(٣) ١٢ فاندمير – ٣ أكتوبر . راجع لاجونكيير المرجع السابق المجلد الثالث صفحة ١٥٥ .

(٤) ١٢ فاندمير – ٣ أكتوبر . راجع لاجونكيير المرجع السابق المجلد الثالث صفحة ٢٢٢ .

فلم يكن إلا لمثل بونابرت أن يعطـى ، منـذ أول لحظـة احتكـاك بـين فرنسـا وشمال أفريقيا مع الإسلام ، أكمل النماذج لإدارة محلية وسياسة دينيـة جديـدة تماماً ، ومدفوعة إجمالاً إلى أقصى حدود تم تحقيقهـا آنـذاك ، وعلـى أى حـال لم يتخطاها أحد . إلا أن الإخضاع والتهدئة والتحالف التـى كـانت تهـدف إليهـا هذه السياسة المحليـة والدينيـة ، كـانت هـى نفسـها تهـدف إلى امكانيـة تحقيـق الهدف الاسـتعمارى الـذى كـان مسـنداً إلى الحملـة الفرنسـية ، فـى الظـروف الأمنية المطلوبة والاستقرار . غير أن تنفيذ نفس هـذا المخطـط ، الـذى سـاندته على التوالى حيوية بونابرت ونشاطه ، لم يمكنه ألا يؤثر بدوره على اسـتعدادات الأهالى تجاه السيطرة الفرنسية .

فرانسوا شارل–رو

قرأة فى كتاب أحد أعضاء الحملة الفرنسية

يحلو لبعض الناس أن يتخذ منهج الغفلة فى التعامل مع القضايا المهمة تحت مظلة حسن الظن ، ومن تلك القضايا توصيف الحملة الفرنسية التى يغفلون عن كونها من أكبر الكوارث التى أصابت مصر فى العصر الحديث إن لم تكن هى أكبرها جميعاً .. ويجهل كثير من أولئك الغافلين الحقائق التى تنطبق عليها عبارة "وشهد شاهد من أهلها" والتى ليست مجالاً للشك ، ولا تحتمل أن تحامل على الحملة وأغراضها وأهدافها وتصرفاتها المشينة . ففى كتاب واحد من كتب أحد أعضاء الحملة الفرنسية ، وهو فيفان دينون Vivant Denon ، نسوق العشرات من الأمثلة التى تدل على الخزى والعار لهذه الحملة المشئومة ، ونترك المئات غيرها ، ونترك مئات الكتب غير كتاب فيفان هذا ، والتى تصف بأقلامهم مدى البشاعة والحيوانية – مع أسفنا لجنس الحيوان – التى وصمت بها الحملة حتى يعد وصفها بأنها معبر للتنوير والحضارة من قبيل الخيانة الوطنية والجهل الفادح لحقائق التاريخ ..

كان فيفان دينون (١٧٤٧–١٨٢٥) من أهم أعضاء الحملة الفرنسية على مصر فى فريق "العلماء" ... وقد عمل بالسلك الدبلوماسى ومارس الكتابة والرسم ، وتم تعيينه أيام نابليون مديراً للفنون "الجميلة ، وحمل لقب "بارون الامبراطورية" . أى أنه كان من المقربين ، الشديدى الحماس لهذه الرحلة . وقد أبحر فى الرابع عشر من شهر مايو ١٧٩٨ على متن الفرقاطة "لاجنون" التى كانت تتصدر الحملة ...

ويصف الأديب أناتول فرانس Anatole France فى كتابه عن الحياة الأدبية

قائلاً : " كان يعلق كراسة الرسم بحمالة ، والنظارة المعظمة على جنبه ، وأقلام الرسم في يده، وينطلق بجواده ليسبق الخطوط الأمامية من الكتيبة حتى يتمكن من الرسم إلى أن تنضم الفرقة إليه . وكان يخط الاسكتشات تحت نيران العدو بنفس الثبات الذى كان سيعتريه إن كان جالساً إلى مكتبه أو مائدته" !

وأول ما يلفت النظر فى هذا الوصف كلمة "العدو" التى تشير إلى المصريين أو الأتراك .

واللافت للنظر أيضاً أن أناتول فرانس ليس الشخص الوحيد الذى استخدم هذه العبارة ، وإنما نراها ترد عبر صفحات كتاب فيفان دينون بأسرها ، وعبر صفحات كل من تحدث عن هذه الحملة المنكوبة ..

ويمثل كتابه "رحلة فى مصر العليا والسفلى" خطوة حاسمة فى معرفة الآثار المصرية القديمة التى رسمها .. أما اليوميات المرافقة لهذه الرسومات ، وإن كانت خليطاً من وصف الآثار والطبيعة ، إلا أنها تزخر بوصف المعارك والمجازر التى واكبها ، ونورد منها هذه النماذج الكاشفة لحقيقة الحملة ..

- باغتنا مخيم بعض الأعراب واستولى جنودنا على كل شىء : الخيام ، والماشية ، والمؤن ..

- باغتناهم بعد فوّة واثخنّاهم بالجراح ففروا إلى النهر وأطلقنا عليهم الرصاص جميعاً ...

- لقد تم نهب القرية عن آخرها طوال اليوم ، وما أن أتى الليل حتى أجهزت عليها النيران التى أشعلناها ... وقامت ألسنة اللهب وطلقات المدافع طوال الليل بترويع المنطقة المحيطة على مدى عشرة فراسخ وبإعلامهم أن انتقامنا تام ورهيب ...

- ما أن أتـى الليـل حتـى حرقنـا المنـازل المجـاورة واسـتولينا علـى المسـجد وفصلنا الأعداء عن النيل ثم انهلنا عليهم لأخذ الذخيرة .

- لم نقتل سوى تسعة من المتمردين ولم نحرق سوى ربع القرية .

- لقد سمحت لنا الظروف ، وعن قرب شديد ، بملاحظة البلد الـذى كـان علينا تغيير عاداته وتقاليده .

- لقد أرجأت متعة رسم النسـاء المصريـات إلى الوقـت الـذى يتمكـن فيـه تأثيرنا فى عادات الشرق من خلع الحجاب الذى يتحجبن به .

- عبرنا السالمية حيث تمكننا مـن تـأمل الأهـوال التـى أحدثهـا انتقامنـا ... وهى نفس المنطقة التى قضينا منذ أيام مضت على معظم سكانها ..

- سنهور المدينة لم يعد بها سوى أنقاض وخرائب ..

- حاصرنا البرج وهاجمناهم بنظام أكثر من المرة السابقة ، وبعد قتلهم بدأنا فى إشعال النيران فى المنازل ...

- ما أن اسـتولينا علـى حقـل المعركـة حتـى شرعنا فـى حـرق كـل مـا يمكنـه الاشتعال وقام الجنود بالاستيلاء علـى قرابـة مـائتين حمـار وحملوا عليهـا مـا يقرب من ألفين أو ثلاث آلاف دجاجة وحمامة ، كما اسـتولوا علـى ثمانمائـة من الخراف ...

- كنا نهدم لنسحق كل مـن كـان يقـترب بمـا معهـم مـن أدوات ليفتحـوا الأبواب التى نختبئ خلفها ، وأصبح السلم الذى يمكنهـم الوصـول إلينـا عن طريقة كآلة حرب لدفـن كـل أعدائنـا دفعـة واحـدة وكنـا نسـتمتع بأعمالنا هذه عندما أتت المدفعية الثقيلـة لتنقذنـا . ولم نتمكـن مـن هـدم

المسجد لكنه أصبح النقطة الوحيدة لتجمع أعدائنا ..

- أجهزنا على قرية " الكان " وأبدنا أهاليها ثم أحرقنا القرية .
- عاد الجنرال دوما بعد مطاردة العرب وقام بمجزرة كبرى ضد المتمردين ، ثم قطع رأس زعيمهم بينما كان يحث مواطنيه على مواصلة القتال ...
- ترددنا فى هدم المسجد إلا أنه كان يأوى مئات من الأعداء ...
- كنا نعسكر أمام المدن والقرى ونقتات على نفقتهم حتى نتسلم منهم ما يجب عليهم دفعه من جياد وأبقار ...
- بعد أن قام سلاح الفرسان بالكتيبة بقتل المئات اختفى الباقون هرباً ، ولولا جنوح الليل وظلامه لفرمناهم ولهدمنا مساكنهم كالمعتاد ...
- كنت أفرح بالقرى الخاوية لكى لا أسمع صراخ الأهالى الذين كنا مجبرين على نهبهم ...
- وصلنا وقمنا بنهب المحال ... ورحلنا فى ظلام الليل لنتفادى نظرات اللوم والإدانة المرتسمة على وجوه الأهالى ...
- ظل يحارب وكأنه لا يمكنه أن يتوقف عن الحياة ، وقام بجرح اثنين من جنودنا رغم أنهما كانا يجهزان عليه بسنج بنادقهما ...
- كان علينا تجويع البلد حتى الموت لنجبر العدو على أن يبقى بعيداً ...
- لقد رفض أهالى جزيرة فيلة استقبالنا ، وأعزينا ذلك إلى الخوف والرهبة التى كنا نشيعها ... ولقد تغير الوضع عندما حاصرناهم بالمدافع الرشاشة وحل الهلع محل الشجاعة وقفز العديد منهم إلى النيل هرباً ، بل رأينا أمهات يقمن

بإغراق أطفالهن الذين لم يستطعن حملهم وتشويه بناتهن لحمايتهن من اغتصاب الغزاة ... وفي الصباح كنا نتناوب عليهن...

• تم إرسال الجنرال دافو Davout بسلاح الفرسان إلى بنى عاد وكان الوضع يتطلب هدم ذلك البركان الذى يهددنا بلا هوادة ، وما هى إلا لحظات حتى قام الجنود بنهب القرية التى سرعان ما اختفت . وكان من ضمن الغنائم العديد من النساء والبنات والجوارى ... وتوالينا عليهن ...

• الثورة الشعبية التى قامت يوم ٢٠ أكتوبر ١٧٩٨ والتى ثار فيها الشعب تم سحقها فى يومين بواسطة المدافع وأسفرت عن مقتل أكثر من ثلاثة آلاف من المصريين ...

• ما أبغض بشاعة الحرب ولياليها الكالحة حيث يجب جمع الموتى وترك جرحى الأعداء يموتون ببطء أو الإجهاز عليهم قبل طلوع النهار ، وخاصة تلك الحملات التعسفية والمجازر التى لا داعى ولا مبرر لها خاصة ضد المدنيين والريفيين ...

• هجمات المدنيين العزّل تماماً كانت تقابل بانتقامات عمياء من قبل رجال ديزيه Desaix ومنها هدم المنازل والإعدام الجماعى ...

• قام الجنرال دافو بقتل ألفين من المواطنين العزّل بتهمة إرسالهما مرشدين إلى المماليك ! كما تم حرق العديد من القرى ...

• كلما تعقدت الأمور بالنسبة للفرنسيين ازدادت هجماتهم عنفاً وشراسة، الأمر الذى كان يدفع النسوة والأطفال والشيوخ إلى محاولة الهرب من جحيم النيران المشتعلة فى بيوتهم وهدم مخازن الغلال وذبح

الماشية وتحطيم آلاتهم الزراعية وإعدام الرهائن بلا أدنى سبب وعمليات الاغتصاب التى كان يقوم بها الجنود الفرنسيين بلا هوادة ...

- لقد تجمع قرابة ستة أو سبعة آلاف من الفلاحين من القرى المجاورة للأقصر لمهاجمتنا ، إلا أن سلاح الفرسان قد قتل منهم ألفاً ومائتين دفعة واحدة ، مما دفعهم إلى الفرار ...

- نحن الذين نزعم العدل كنا نقترف يومياً وبلا مبرر بشاعات لا يمكن وصفها ذلك لأنه من الصعب تمييز عدونا بناء على اللون والملبس ، مما دعانا إلى قتل العديد من الفلاحين الأبرياء يومياً ...

- الإسلام دين تعتيم يصاحبه الاستبداد أو الفوضى ... الإسلام دين مشئوم حيث إن المبادئ الفاسدة إضافة إلى العقيدة تحصر الإنسان بين البطولة والفسوق ...

- إن عبارة " الإسلام والعرب " تمثل أسوأ خليط يمكن تصوره لأن دين محمد عبارة عن بضعة صفات لا يمكنها أن تكفى أمام الجهل الرهيب للعرب ... وعلى الرغم من تبجيلهم الأعمى للقرآن وطاعتهم المطلقة لكل ما قاله نبيهم ، ورغم اللعنة التى تلاحق كل من يبتعد عن ذلك فهم لم يفلحوا فى الابتعاد عن الهرطقة ولا عن سحر الوثنية [١] ...

- ياهول ذلك الفارق بين الشعارات الثورية البراقة التى يوجهونها للشعب المصرى لتحريره من نير المماليك وبين نفس الممارسات العدوانية التى يمارسونها عليه " ! ..

---

(١) نحن لن نعلق على هذا الهراء الكاشف لمعتقداتهم وأفكارهم وموقفهم المتدنى من الإسلام والعرب .

وإن كان فيفان دينون مع مرور الوقت ومعايشته بشاعة ما يقترفون من مجازر قد بدأ يتسأل بمرارة " بأى حق نقوم بهذا الإجراء أو ذلك " ؟! فلا نرى أوقع مما نختتم به هذه المقتطفات إلا نفس تساؤل فيفان دينون بعد أن اهتزت أعماقه الإنسانية من هول ما عايشه :

" كيف يمكننا إقناع مثل هؤلاء الرجال أو قهرهم على الصمت ؟! ألن يلوموننا دائماً بأنا أثرينا مقابر أجدادهم بحصاد رهيب ؟ " ويالها من صيغة أدبية مهذبة ليعبر بها عما تم اقترافه من مجازر وإراقة دماء بغير حق ، وعدوان قائم على الغش والخداع والخيانة والكذب ... فهل يمكن لعاقل حتى لو كان عميلاً من عملائهم أو ذنباً من أذنابهم أن يدعو للإحتفال بهذا البلاء ؟!

أليس من الأكرم - بدلاً من تحريف التاريخ وتزييفه وإخفاء الحقائق لصالح الغرب واتجاهات الفرانكوفونية وحروب التسلل البطئ - أن نطالب بمحاكمة جلادى هذه الحملة كمجرمى حرب ولو غيابياً ؟ أليس من الأحق لدماء شهدائنا المطالبة بإعادة كل ما سرقوه من تراثنا وآثارنا التى تمتلئ بها متاحفهم ومكاتبهم وهى " غنائم ضخمة حملوها تحت حماية الحكومة والجيش " كما يقول فيفان دينون فى كتابه " رحلة فى مصر العليا والسفلى "، وأن نجاهد لننفض عن كاهلنا هذه التبعية الاستعمارية المخزية ؟! .

من وثائق ما قبل الحملة

لا نتناول شذرات من وثائق ما قبل الحملة الفرنسية على مصر إلا لنوضح أن فكرة الغزو لم تكن عشوائية أو من بنات الساعة لأى فرد كان ، وإنما هى بمثابة حل أو مخرج لأزمات فرنسا السياسية والاقتصادية والتجارية ، تمت دراسته بتأن ، وقد ساهمت العديد من الآراء والسلطات فى تكوينه وتنفيذه ...

فإذا ما رجعنا عدة عقود فقط إلى ما قبل الحملة ، ولا نقول إلى قرن بأكمله، أى لمجرد الأصداء القريبة منها ، لوجدنا أنه منذ عام ١٧٦٦ وفرنسا حانقة من تدخل امبراطورة روسيا ، كاترين الثانية ، فى بولندا ، وكانت تسعى لشن حرب ضدها فى تركيا ، فقام الدوق شوازول Choiseul ، وزير خارجية لويس الخامس عشر بتعيين الفارس سان–بريست Saint-Priest سفيراً لفرنسا فى القسطنطينية فى ١٧٦٨/٧/١٧ لدراسة الوضع الراهن للامبراطورية العثمانية والثورات المحتملة أو تلك التى تتهددها ، وإمكانية تصفية الوجود الشرقى ، والعمل على انهيار هذه الامبراطورية أو كيفية الاستفادة من هذا الانهيار إذا تعذر منعه " ! [وارد فى : "المشروع الفرنسى لغزو مصر أيام حكم لويس السادس عشر" ص٢] .

وفى عام ١٧٦٩ أعلنت تركيا الحرب على روسيا وتم لفرنسا ما سعت إليه لتكون الوسيط الخارجى فى حل هذا النزاع ... وتم إرسال البارون فرنسوا دى طوط François de Tott كمستشار حربى للسلطان مصطفى الثالث.والنص الصريح ليس بحاجة إلى تفسير فالاستفادة من سقوط امبراطورية يعنى "الحصول على جزء من أراضيها الفعلية أو ممتلكاتها البعيدة" على حد قول فرنسوا شارل–رو كاتب البحث المذكور سالفاً . والميراث المعنى هنا هو أن ترث فرنسا الأتراك فى الشرق .

ونطالع فى التعليمات الصادرة لسان-بريبست فى ١٧٦٨/٧/١٧ إضافة إلى وزير الخارجية الفرنسى ، ما يشير إلى ذلك الميراث قائلاً : " إن مصر توجد فيما يشبه حالة استقلال متميز عن الباب العالى ، وعلينا أن نصوب نظراتنا إلى هناك ... وأن يأخذ الروس أوكرانيا وتستولى فرنسا على مصر " ...

ومن ناحية أخرى ، كان الدوق دى لوزون Louzun (ابن شقيق دى شوازول) يحاول اقناع الكونت مونموران Montmorin وزير الخارجية آنذاك ، بالعمل على تبنى سياسة تحول دون استقرار انجلترا فى مصر ، وأن يعمل على استتباب السيطرة الفرنسية . ومن بين التقارير والخطابات المتتالية التى أرسلها نطالع عبارة تقول : " إن مصر كثيراً ما لفتت انتباه الدوق دى شوازول ، والاستحواذ على هذا البلد الخصيب الرائع كان بمثابة مشروعه المفضل وهيامه السياسى الذى كثيراً ما تَصدّر أحلامه " [ص٩ المرجع السابق] .

وفى ١٧٩٧/٧/٣ ، كان القس دى بريجور De Périgord ، الذى اعتلى درجات السلطة ليصبح اسمه تاليران Talleyrand ، المعروف بالوزير الداهية ، كان يناشد أعضاء المعهد العلمى الفرنسى ويحاول إقناعهم " بالمزايا العديدة التى تتيحها الظروف لاحتلال مصر ، وهى بمثابة الخطوط الأولى لخطته الشخصية للحملة الفرنسية على مصر ، مضيفاً تلك العبارات التى اشتهرت فى التاريخ :

" إن السيد الدوق دى شوازول ، أحد أكثر رجال عصرنا ادراكاً للمستقبل ، كان يتنبأ منذ عام ١٧٦٩ بانفصال أمريكا عن انجلترا ، ويخشى تقسيم بولندا ، وكان يبحث منذ تلك الفترة عن الإعداد لمفاوضات التنازل لفرنسا عن مصر ... لتكون فرنسا مستعدة عن طريق نفس المنتجات وبتجارة أكثر اتساعاً تعويض المستعمرات الأمريكية عندما تفلت من أيدينا " .

أى أن خلاصة الموقف ، عند تفكك الامبراطورية العثمانية التى تحيط بها أطماع الدول المجاورة لها والتى أعدت لهذا التفكك بدهاء ودأب كما يوضحه شارل–رو : " إذا ما تم التفكك فإنه سيحرم لعبة فرنسا من الكارت الذى ما زالت سياستها تستخدمه بفائدة رابحة ، كما سيجعلها تفقد الموقف المميّز الذى تحتله فى تجارة المشرق . ولهذين السببين كان لابد لها من تعويض ضرورى ، فى شكل أرض تعوضها التوسعات المحتملة لغيرها وأن يؤكد وضعها الجغرافى للتجارة الفرنسية احتمالات نشاط أوسع وتطوراً أعم . وفى اختيار الأراضى المتاحة ، كانت أكثر الميول الشخصية والرسمية تتجه إلى مصر . وكان لاختيار مصر العديد من الأسباب " [ص١٢ المرجع السابق] .

وبعد تناول ميزة الموقع السياسى لمصر بالنسبة للباب العالى وتدهور الأوضاع به ، راح فرنسوا شارل–رو يتناول جانب الثروات فى مصر قائلاً: " ثم إن هناك ثروات مصر ، ومواردها الزراعية ، وأهمية تجارتها ، وموقعها الجغرافى ، والتسهيلات التى تقدمها للتجارة مع الهند عن طريق البحر الأحمر . إن مجمل هذه الظروف الفريدة تفتح باب استغلالها بصورة شديدة الفائدة ، بمزايا لا تقل أهمية ، تحت إدارة رشيدة ، مما يضفى على مصر قيمة لا مثيل لها، وهذه القيمة تجعلها شديدة الإغراء بالنسبة لفرنسا . وبما أن هذه الميزات تجعلها مغرية فى نظر بلدان أخرى كانجلترا والنمسا بل وحتى روسيا ، فإن ميزة الاستحواذ عليها يضاف إليها ميزة منع منافسينا من الاستقرار فيها " .

" ثم هناك التراث ، وذكرى الحروب الصليبية لسان لويس ، والعلاقات الاقتصادية والسياسية لفرنسا مع مصر ، وأهمية تجارة مرسيليا مع كل من الإسكندرية والقاهرة ، والوضع القوى والمميز حقيقة الذى حصل عليه تجارنا

أيام لويس الرابع عشر ، وما زالوا يحتفظون به ، والأخطار الناجمة عن الفوضى المحلية التى تتهدد هذا الوضع القديم لتجارتنا ، وأخيراً هناك سمعة مصر لدى الآخرين ، غير التجار وأصحاب السفن ، تلك السمعة التى كونها الرحالة عنها ، وعظمة ماضيها وآثارها القديمة ، وكلها عوامل تساهم فى شعبية وأهمية هذا المكان . وكل ما عددناه هنا لا يستهان به " [ص١٣] .

وفى المذكرة التمهيدية الموجزة التى كتبها سان – ديدييه St. Didier نائب وزارة البحرية إلى رئيسه السيد دى بوان De Boynes نطالع :

" وفقاً لكل الإيضاحات التى استطعت جمعها ، ووفقاً لتجارب كافة الأشخاص الذين شاخوا فى إدارة شئون الشرق والذين لديهم بالتالى دراية أكثر اتساعاً حول مختلف مقاطعات هذه الامبراطورية ، ووفقاً لتجربتى الشخصية فإننى أعتقد أن مصر تمثل بالنسبة لنا المكان الوحيد الذى يمكن أن نعده لأغراضنا بصورة رابحة وبسهولة وبضمان مؤكد ..." .

" ومن هذا المنطلق ، فإننى أقترح غزو مصر كخطة محتملة وأنها يجب فى الوقت الراهن أن تستأثر باهتمام الحكومة كلية ، لكى نناقش المزايا والعقبات وأن نقوم بإعداد الوسائل إذا ما تم الاعتراف بسهولة ولياقة هذه العملية " .

" ولم تتح لى اليوم فرصة الدخول فى التفاصيل حول مزايا غزو مصر الحالية. إن السيد الرئيس لم يطلب سوى هذا العرض البسيط الموجز لوجهة نظرى حول الجانب الذى يتعيّن على فرنسا أن تتخذه فى حالة ما إذا اندلعت ثورة فى الامبراطورية العثمانية . وإذا ما راقت وجهة نظرى هذه لسيادته سأتناول المسألة بمزيد من الإسهاب وسأكتفى بأن أوضح له بصفة عامة أن غزو مصر يبدو لى أنه الوسيلة الأكيدة لإخفاق أو على الأقل ليوازن النظرات

الطموحة لروسيا وانجلترا ، وأن يجعل فرنسا سيدة التجارة في الهند دون أية مقاومة ، وأن تأتي لآل بوربون بامبراطورية البحر الأبيض المتوسط ، وأن تجلب لها أخيراً مستعمرة للسكر والنيلة مستقلة عن أمريكا وعن المصير الذى يمكن للمستقبل أن يعدّه لأوربا نسبياً في العالم الجديد . سأضيف فقط أن الاستيلاء على مصر لا يمثل صعوبات كبيرة إن لم يكن علينا إلا هزيمة المماليك والأتراك الموجودين فيها . غير أن أهم ما يجب أن نتوخاه قبل عملية الغزو هو كيفية الاحتفاظ بهذا البلد حتى لا نتعرض في أى لحظة كانت لمجاذفة ضياع ثمرة جهودنا ونفقاتنا " [ص١٥-١٦ المرجع السابق] .

بينما كتب البارون دى توط de Tott عام ١٧٧٦ ، مذكرة إلى وزيرى الخارجية والبحرية الفرنسية بعنوان : " فحص الحالة الطبيعية والسياسية للامبراطورية العثمانية ووجهات النظر التى تحددها بالتالى لفرنسا " ، وكان دى توط هذا يعمل مستشاراً حربياً للحكومة التركية كما رأينا فى مطلع هذا الجزء من البحث .

ويبدأ هذا التقرير بعرض الأوضاع فى الامبراطورية العثمانية التى كان على دراية واسعة بأمورها السياسية والعسكرية ، ثم ينهيه قائلاً : " وبناء عليه ، فلا يوجد أمام فرنسا سوى خيارين : إما ضمان الامبراطورية العثمانية وحمايتها من الانهيار ، وإما استغلال فرصة هذا الانهيار " .

وبعد استعراض الحالة التجارية راح يضيف قائلاً : " إن الاستقرار فى مصر يجمع بين اهتمامات جلالته وسياسته . ويكفى إلقاء نظرة على خريطة مصر لنلحظ فى وضعها القريب من أوربا وآسيا وأفريقيا والهند أنها بمثابة مستودع لتجارة عالمية . فهى تمتاز بمناخ معتدل وأرض محظوظة يرويها أجمل الأنهار ،

وتعطى أكثر المحاصيل تنوعاً وأكثرها وفرة وقيمة ، فهى تقع فى الزاوية الشرقية لأفريقيا ، وقريبة من أثيوبيا ، وموانيها فى البحر الأبيض المتوسط وفى البحر الأحمر تجعلها تلامس تقريباً أوربا وآسيا والهند عن طريق باب المندب .

"وفرنسا هى البلد الوحيد بين القوى العظمى التى يمكنها تكوين وتغذية والاحتفاظ بمنشأة للاستقرار بلا أى اعتراضات ، وستكون منبع أكبر الثروات بربط البحر الأحمر بفرع النيل القريب منه عن طريق قناة صالحة للملاحة . لكن دون التوقف عند موضوع بمثل هذه القيمة الكبرى ، فإن المزايا الواضحة للوضع الراهن لمصر تكفى لكل تجارة فرنسا بأسرها ، والطرق الممهدة من القاهرة الكبرى إلى السويس ستكفى لتسهيل عملية استغلال طريق الهند . كما سنلاحظ أيضاً فى هذه المنشأة أن قربها منا يضعها تحت أعين جلالته وأعين وزرائه ، كما أنها لا تؤدى إلى ما يشبه المنفى لرعايا جلالته الذين سيُنقلون إليها ، ولا تتسبب فى تقسيم القوات العسكرية للدولة من أجل حمايتها . علينا أن نضيف إلى هذا الاعتبار الأساسى أن فرض ضرائب معتدلة فى بلد بمثل هذا الثراء وبمثل هذا التعداد سيكفى للإنفاق على الجيش الذى سنقوم بتكوينه فيها وللإنفاق على الأسطول الموجود بالفعل والممثل فى البوارج القابعة فى الإسكندرية " .

ويختتم البارون دى توط تقريره بهذه العبارة الكاشفة لحقيقة نظرة المستعمر الصلف : " إن بلد بلا حماية ، تحت سيطرة قوى شبه منعدمة ، وهو عبارة عن أمة تجارية وشعب رخو ، يخضع دائماً لأى عبد لديه إرادة ليحكمه ويأمره ، فكل ذلك لا يمثل بالنسبة لنا عقبات علينا أن نجتازها " !!.

ويوضح المؤرخ فرنسوا شارل-رو أن كل ما كانت فرنسا تحتاجه آنذاك هو

البحث عن " ذريعة لقيام الحملة " [ص٢١] وكانت الذريعة التـى تلفّعـت بهـا فرنسا لشن حملتهـا الاسـتعمارية الاسـتيطانية السـافرة هـى : " الإهانـات التى ألحقها البكوات المماليك بالتجار والباعة الفرنسيين " ! وهو ما ينهى به البارون دى توط تقريره قائلاً :

" إن تصحيح الإهانات التى عانى منها التجار طيلة الوقـت سـتكون الحجـة الصائبة للعدوان الذى سيعرف سفير جلالته لدى الباب العالى كيف يبرره نظراً لعدم استطاعة السلطان البت فيها " .

وذلك على الرغم من أن نفس هؤلاء التجار الذين تم اتخـاذهم ذريعـة لغـزو مصر واحتلالها ، كانوا فى واقع الأمر يتمتعون بوضع قـوى ومميز حقيقـة منـذ أيام لويس الرابع عشر ، بل وما زالوا يحتفظون به ، كما تقول وثائقهم ، حتـى بدأت الحملة ...

" ملاحظات حول مصر"

التقرير السرى الذى قدمه سان-ديدييه عام ١٧٧٦ لاحتلال مصر ! ...

إن فكرة غزو مصر واحتلالها ونهب ثرواتها ترددت أصداؤها طويلاً فى دهاليز الحكومات الفرنسية المتتالية منذ بدأت أطماعها الاستعمارية فى الانتشار ، إلا أنها ازدادت بصفة خاصة في القرن الثامن عشر ... وما أكثر التقارير السرية التى تم تداولها خفية فى وزارة الخارجية أو فى وزارة البحرية ، تقارير كتبها رجال السلك الدبلوماسى الفرنسى العاملين فى العالم العربى والإسلامى ، خاصة فى كل من تركيا ومصر ...

ومن أهم تلك التقارير السرية ، ذلك التقرير الذى قدمه سان-ديدييه فى شهر أغسطس عام ١٧٧٦ إلى رئيس وزارة الحربية الذى كان هو واحداً من كبار موظفيها ... إنه تقرير يكشف بوضوح مقزز عن الأهداف السياسية والعسكرية والاقتصادية لتلك الحملة المشئومة على مصر كما يكشف عن خبايا تلك النفوس المريضة القائمة على الغش والخداع والاستغلال ...

ويتكون التقرير أصلاً من مقدمة وثمانية بنود ، تكشف عما استطاع سان - ديدييه أن يجمعه من معلومات حول مصر في ذلك العصر ، من حيث موقعها الجغرافى ، وشعبها بعاداته وتقاليده ، والثورات المتتالية التى شهدتها مصر آنذاك ، وحول حكومتها ومختلف منتجات البلد وصناعاته وتجارته ... كما يكشف عن آراء كاتبه وتحليلاته السياسية لتبرير الحملة على مصر وغزوها

والاستقرار بها للتمكن من نهبها وتعويض ضياع المستعمرات الأخرى ...

والجزء الذى نقوم بترجمته فيما يلى منشور فى بحث طويل بعنوان : "المشروع الفرنسى لغزو مصر أيام حكم الملك لويس السادس عشر" بقلم المؤرخ فرنسوا شارل –رو ، وهو منشور فى المجلد الرابع عشر من مطبوعات المعهد الفرنسى للآثار الشرقية ، وهو الاسم العصرى لتلك المؤسسة التى أتى بها نابليون مع حملته تحت اسم "لجنة العلوم والفنون"!..إلا أن المؤرخ لم يورد من ذلك التقرير السرى سوى المقدمة وآخر ثلاثة بنود ، وهى على التوالى : "فحص المزايا التى سنحصل عليها من غزو مصر" ، "وهل من الممكن غزو مصر؟" ، و"غزو مصر هل هو ضرورى أم هل سيصبح ضرورياً ؟" .

وتتضمن مقدمة التقرير العرض التالى للأحوال السياسية :

" إن النكبات التى تعرض لها الأتراك أثناء الحروب الأخيرة مع الروس ، وشروط السلم المخزية التى تمهد لانهيار امبراطوريتهم واتساع الامبراطورية الروسية ، والخوف من ثورة قريبة المدى والتى قد تطيح بسلطان القسطنطينية فى آسيا ، قد دفعتنى إلى التنبؤ بالضربة القاضية التى يمكن لهذا الحدث أن يوقعه بالتجارة الفرنسية فى بلاد المشرق . وبعد التفكير ملياً حول الإجراءات التى يجب أن يتم اتخاذها فى هذا الوقت ليتم تزويد فرنسا بمعادلٍ يمكنه أن يعوضها عن الخسائر التى تتهددها ، فقد لاح لى ذلك فى غزو مصر . ولم أخف عن نفسى المصاعب التى يمكنها اعتراض ذلك ، إلا أننى رأيت أنه يمكن اجتيازها ...

"وبعرض كل ما يتعلق بتجارة المشرق على سيدنا ، والتى تسلمت تفاصيلها بناء على أوامره ، فقد رأيت أن أعرض عليه هذا المشروع بكل مزاياه ، دون أن أخفى عنه العقبات التى يمكن للظروف الحالية أن تأتى بها . ولم أقدم له

ذلك إلا كمورد للمستقبل ، ووسيلة لإخفـاق التطلعـات الطموحـة لروسـيا ، وللقوى الأخرى الغيورة من سيادة تجارتنا فى البحر الأبيض المتوسط .

"وبعد عدة أشهر عاد البارون دى توط ، المعروف بكفاءته وبالخدمات التـى أسداها أثناء إقامته الطويلة بتركيا ، عاد مؤخراً مـن القسـطنطينية . وقـد سلّم الوزارة باسمه واسم الكونت سان بريـيست Saint-Priest مذكرة تفصيليـة حـول وضع الأتراك ووضع الفرنسيين حـول موانـئ المشـرق . ويشـرح فيـه بـأوضح الطرق الانهيار القريب للامبراطورية العثمانية ، وعدم قدراتها الدفاعية ، وعدم جدوى الجهود التى يمكن لفرنسا أن تقدمها لهـا ، إن هـذا البيـان لافـت للنظـر بوضوحه ولا يمكن إغفال حقيقته . وهو ينهى تقريره هذا باقـتراح غـزو مصـر مكتفياً بوضع الظروف العامة التى يمكنها تحديد ذلك تحت أعيُن السيد الوزير :

"وقد كلفنى سيادته بأن أقدم له ملاحظاتى حول مشـروع السـيد دى تـوط وأن أزوده بتفاصيل عن مصر . وسوف أقوم بهذه المهمـة بقـدر مـا تسـمح بـه معلوماتى الضعيفة والجهل الذى أنا فيه فيما يتعلق بعلاقاتنا السياسـية والموقـف الخاص بمختلف القوى الأوربية التى يمكنها أن تسمح لى بذلك . وإذا ما كنـت من نفس آراء السيد الكونت دى سان بريـيسـت والسـيد دى تـوط ، فلـى أن أفخر بذلك ، إلا أنه سيكون بمثابة دافع إضافى لمناقشة آرائهما بموضوعيـة وأن أحطات من تلك الرغبة التـى تتملـك كـل شـخص للدفـاع عـن وجهـة نظـره الشخصية . وسـأجتهد بالقيـام بمـا كـان فـى وسـع كـل مـن السـيد دى سـان بريـيست والسيد دى توط أن يقومـا بـه بصـورة أفضـل منـى وكلنـا لنـا نفـس الهدف: حب الخير ، ومجد الملك ، ومجد وزرائه ، ومصلحة الدولة . وسـأجتهد لتدعيم أفكارى بالوقائع والمبادئ .

"إن الإقرار بمشروع بمثل هذا الاتساع ، من قبيل غزو مصر ، والمجازفة بحملة بمثل هذه الأهمية فلابد وأن تكون مثمرة ، وأن تكون ممكنة ، وإن أمكننى القول : أن تكون ضرورية .

" فهل غزو مصر سيكون مثمراً بالنسبة لفرنسا ؟ " .

" قبل الرد على هذا السؤال ، يجب أن نعرف موقع مصر ، ومنتجاتها ، وثرواتها الداخلية والثروات التى يمكن للتجارة أن تجلبها " .

" لابد من موازنة المزايا التى سنحصل عليها بالمصاريف التى ستؤدى إليها تكاليف غزوها والتكاليف التى ستتكبدها الحكومة للاحتفاظ بها " .

" وأخيراً يجب أن نبحث إن لم تكن هذه الحيازة الجديدة لن تضر بشعب فرنسا " .

" ولندخل فى الموضوع " .

تلك كانت مقدمة التقرير السرى الذى رفعه سان-ديديه لوزارة الحربية الفرنسية . أما البنود الثلاثة الأخيرة على التوالى :

٦-"فحص المزايا التى سنحصل عليها من غزو مصر"

" إن كل التفاصيل التمهيدية التى تناولتها قد بدت لى ضرورية لنعرف موضع مصر ، وطابع سكانها ونوعية منتجاتها . وكلها نقاط متعددة وأساسية ستنفع فى توجيهنا أثناء مناقشة المزايا التى سيمكن لفرنسا أن تحصل عليها بامتلاكها مصر " .

" إن بلداً بمثل هذا الثراء وهذه الخصوبة ، رغم القهر الذى يعانى منه ، يعد

بمثابة منبع لموارد لا حصر لها بالنسبة لبلد متحضر ومثقف ، كما يقدم له أكبر التسهيلات ليزيد من إنتاجه ودخله . إن الإصلاح المتتالى لقنوات النيل القديمة التى ردمت ، وإعادتها إلى ما كانت عليه ، سيعود بالوفرة والرخاء على كل أنحاء مصر التى أصبحت قحطاء . كما أن هذه المملكة وحدها سوف تعود بمبالغ طائلة وتزودنا بمادة ضخمة لتجارة واسعة . فلا توجد أى مستعمرة يمكنها أن تقدم نفس المزايا فى نظر إنسان محايد . لكن فى نفس الوقت ، إذا ما اعتبرنا مصر كمجموع الشعوب الأكثر بربرية والأكثر تحضراً فى نصف الكرة الأرضية الذى نحن فيه ، ونظرنا إليها على أنها المستودع الأساسى والضرورى لبضائع أوربا وآسيا وأفريقيا ، وإذا ما نظرنا إليها على أنها النقطة المركزية التى تتجمع فيها كل ثروات هذه الأجزاء الثلاثة من العالم ، فمن الواضح أن المملكة التى ستحكم مصر وتسودها هى التى ستحكم وتسود التجارة العامة للعالم القديم .

" فمن ذا الذى يمكنه أن يقاوم مثل هذا الحماس الوطنى حيال مشروع سيؤكد لفرنسا ثروات طائلة ويزودها بالوسائل التى تجعلها القوة الأكثر احتراماً فى أوربا ؟ " .

" لنلقى بنظرة على الموقع الجغرافى لمصر . إنها تقع بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر عند الطرف الشرقى لأفريقيا حيث يربطها خليج السويس بآسيا . إن مختلف بلدان أفريقيا تساهم فى إثراء تجارة مصر ، دون التحدث هنا عن قوافل المغرب وممالك الجزائر وتونس وطرابلس وكل ما يمكن لأثيوبيا وبلاد الحبشة أن تجلبه من ثرواتها إلى مصر . ولا يقوم الأثيوبيون أنفسهم بالتجارة ، فنادراً ما يتاجر هؤلاء القوم خارج بلادهم . إنهم يبيعون

بضائعهم إلى سكان النوبة ، المعروفين باسم البربر ، وهذه الشعوب تعبر الجبال البشعة التى تفصلهم عن مصر ، ويأتون إليها بمنتجات هذه الممالك . فلا يمر عام إلا وتنطلق قافلة من سنار إلى مصر . وإنى لواثق من أن أى دولة صناعية يمكنها أن تضاعف أو أن ترفع ثلاثة أضعاف هذه التجارة بدراسة ذوق واحتياجات النوبيين والحبشيين والأثيوبيين ، وبأن تزودهم بالبضائع التى يمكن أن تكون أنسب لاحتياجاتهم .

" وهذه بلا شك إحدى المميزات التى تمثلها مصر ، إلا أن كل ذلك لا يعد شيئاً عندما نفكر أن فرنسا يمكنها أن تستحوذ وحدها فقط على كل تجارة الهند باحتلالها مصر . إن وجودنا فى هذه البقعة من العالم غير مؤكد إذ أن الإنجليز قد سبقونا فى كل مكان ، وينعمون بهدوء بغنائمنا . وقد أصبح من المحال لفرنسا أن تسترجع السيادة على الهند ، فكم من جهود يجب أن تبذل لنستعيد مؤسساتنا ولنهدم فيها قوى الإنجليز ؟! ورغمها فلا يمكننا التنبؤ بأى نجاح . فلنترك لمنافسينا طريق رأس الرجاء الصالح ، لكن لا يجب أن نتخلى لهم عن تجارة غالية . فلنطعن تجارتهم فى الهند بالضربة القاضية دون حتى استخدام وسائل الجيوش . إن استقرارنا فى مصر سيسمح لنا بشراء كل بضائع الهند بأسعار أعلى مما يدفعه الإنجليز وأن نبيعها لشعوب أوربا بأسعار أقل منهم إذا ما كانت هذه الوسيلة ضرورية فى البداية لنحصل على الأفضلية . ليفتح ميناء السويس أمام الهنود ، ولنتعامل مع حكامهم ، لنذهب ببواخرنا للبحث عن بضائعهم ، وعما قريب لن يستطيع الإنجليز أن يقاوموا منافستنا ، وعما قريب سيتخلون عن بلد لن يمكنهم منافستنا فى تجارته . والأمر فى أيدى فرنسا لتقوم بثورة لإفلاس منافسيها وتفتح لها فى نفس الوقت مصدراً لا ينضب من الثروات . إن الإنسان يذهب عادة من موانئ بروفانس إلى الإسكندرية فى

خمسة عشر أو فى عشرين يوماً . والمسافة عن طريق النيل من الإسكندرية إلى القاهرة لا تستغرق فى الصيف أكثر من ثلاثة أو أربعة أيام ، والجمال التى تنقل البضائع من القاهرة إلى السويس لا تستغرق أكثر من يومين لتصلها . وسوف نستعين بالجمال إلى أن نتمكن من إعادة فتح القناة القديمة التى كانت تربط النيل بالبحر الأحمر . إن الرياح الشمالية التى تسود ذلك البحر عدة أشهر فى العام ستقود بواخرنا من السويس إلى موانئ الهند فى وقت قليل . بل إنه يمكن الجزم بأن البضائع المتجهة من مرسيليا ستصل الهند فى غضون شهرين ونصف أو ثلاثة على الأكثر بعد رحيلها من فرنسا وأن العودة لن تكون أطول إذا ما تخيرنا الفصول . وبهذه الطريقة سنتجنب فقدان الرجال الرهيب الناجم عن داء الحَفَرْ والأمراض التقليدية الناجمة عن الرحلات الطويلة، والذى نعانى منه كل عام . كما سيمكننا أن نزود جزر فرنسا والبوربون بقمح مصر إذا ما كان من المناسب الاحتفاظ بهذه الجزر " .

" وعادة ما يصل إلى مصر عن طريق موانئ تركيا والبلدان المسيحية ٥٠٠ باخرة كل عام . فيمكن الاحتفاظ بكل هذه التجارة لفرنسا . كما أن الفرنسيين سيحضرون إلى مصر كل بضائع أوربا وسيذهبون إلى موانئ المشرق لإحضار كل بضائع تركيا . ويمكن عمل نفس الشئ فى طريق العودة . إن راية الملك ستقوم بكل تجارة الهند ومصر وأفريقيا دون أن تخشى أية منافسة .

"وسوف يضطر ملك اليمن أن يبيع قهوة الموكا إلى الفرنسيين ، والشريف فى مكة والمدينة لن يجد أمامه إلا أن يأخذ جانب القيام بتجارة بلده مع البواخر الفرنسية ، التى ستكون لها السيادة المطلقة على البحر الأحمر . إن المسلمين يتجهون إلى مكة عن طريقين ؛ فغالبية الأتراك والفرس يمرون عن طريق

دمشق. والبربر يعبرون مصر . ويمكننا أن نمنح رعايا مختلف القوى الأفريقية حرية الذهاب إلى هناك عن طريق مصر وستكون هذه وسيلة لنتأكد من ولائهم ومن صداقتهم ؛ بل حتى إنه يمكننا أن نعطى حراسة لهذه القوافل ضد الأعراب لحمايتها مقابل مبلغ نظير النفقات .

" إنه لا يمكن الشك فى مزايا غزو هذا البلد ، بل أقوال أكثر من ذلك ، فأياً كانت نفقات وتكاليف هذه الحملة فإن محاصيل مصر وجماركها سرعان ما سوف تعوّض كل ما نكون قد أنفقناه . وسيؤدى ذلك إلى زيادة إيرادات الملك وإنقاص إيرادات منافسينا .

" ولا شك فى أن السنوات الأولى التى ستعقب الغزو لن تأتى بأرباح كبرى، ذلك بسبب مصروفات الجيش والحصون التى يجب إقامتها ، والترسانات التى يجب إنشاؤها ، والقنوات التى يجب تحسينها ، كل ذلك سيمتص الإيرادات . لكن ، إن قوة مثل فرنسا يتعين عليها أن تصوب نظراتها إلى المستقبل . نعم ، إننى أجروء على القول إنه إذا ما تمكنّا من الاستقرار فى مصر ، وإذا ما اهتمت إدارة فرنسا أن تولى هذه المستعمرة الجديدة كل الاهتمام الذى تستحقه فلن تمضى فترة عشرة أعوام دون أن ترتفع إيرادات الملك السنوية إلى أعلى بكثير عن كل ما أنفق فى الاستيلاء عليها . يجب التفكير فى طبيعة المنتجات المصرية ، وفى خصوبة أرضها ، وفى مختلف أفرع التجارة التى ستستقر فيها وعندئذ سيتضح أننى لم أكن أبالغ ، وأنه من المحال أن نحسب كل الثروات التى ستجنيها فرنسا . لكن ، قد يرى البعض أنه قد تصبح مصر مقبرة الفرنسيين الذين سيذهبون للاستقرار فيها وإنه لن نتمكن من الحصول على ثرواتها إلا على حساب شعب فرنسا ؟!

" للإجابة عن مثل هـذا الاعـتراض ، لنسـتمع إلى الرحالـة وإلى الفرنسـيين الذين سكنوا مصر . إنهم يقولون : إن الهواء أكثر نقاء مـن أى بلـد آخـر فـى الدنيا – باستثناء ألاب جرانجيه Granger ، كما أوضحت فـى عاليـه . إن نقـاء هذا الجـو يسـرى وينتقـل إلى كـل الآدميـين الذيـن يعيشـون فـى هـذه المنطقـة المحظوظة . ومن المعروف أن الجو يمكنه أن يتلوث مثلما هو واقع فى أى أجـواء أخرى . فأماكن المستنقعات غير صحية ، ومنها الكثـير ، لكـن ذلـك يعـود إلى خطأ السكان ، إن حفر القنوات سوف يحـل كـل هـذه المشـاكل . وحيـث إن الجو شديد الحرارة والشمس حامية ولا تسقط الأمطار إلا فيما ندر ، فإن الطل شديد الخطورة في مصر . إن الشمس تؤدى إلى ارتفاع كـم مـن الأبخـرة التـى تسبب كثيراً من الاحتقانات في العيون ، غير أن هناك من يرجعهـا إلى الرمـال الناعمة التى تحركها الرياح . إنه الشئ الوحيد غير المريح فـى مصـر . إن فـرق الجيش والعاملين المدنيين والعسكريين والتجـار والفنـانيين يكفـون تمامـاً . ومـن السهل استدعاء كافة الكاثوليك الشرقيين الذين يئنون تحت طغيان المسـلمين ؛ إن فلسطين وسوريا وديار بكر مليئة بهم . فإذا ما منحناهم حياة ناعمة مطمئنة وبعض الأراضـى ، سيتهافتون جماعـات للاسـتقرار بهـا ، كمـا أن مصلحتهـم سوف تربطهم بالفرنسيين .

" أعتقد أننى قد أجبت على كل الاعتراضات ، التـى يمكـن أن تقـال حـول فائدة غزو مصر ، وإننى قد أوضحت المزايا الضخمة التى سنحصل عليها .

" إلا أن هذه المزايا لا تكفى لحسم موضوع حملة من هــذه النوعيـة ، ولابـد من حل نقطة أخرى لا تقل أهمية .

٧- هذه الغزوة هل هى ممكنة ؟

" يثير هذا السؤال كثيراً من الشك والارتياب ، فلن أخفى لا العقبات ولا الصعاب، وسوف أقترح الوسائل التى ستبدو لى أحسنها لإنجاح هذه المهمة ، وذلك بتوضيح الإجراءات المسبقة التى يجب الاهتمام بها قبل محاولة القيام بأى شئ .

" فلابد من الإقرار بأن هذه الحملة ستكلف الكثير : نفقات التسليح ، ونفقات الانتقال ، وجانب تكاليف المعيشة والمؤن ، أى بكلمة واحدة كل الإمدادات الضرورية للغزو والاستيلاء على هذه الأرض الشديدة التكلفة . وليس من حقى أن أقرر ما إذا كان الموقف المالى يسمح بمجازفة هذه العملية حتى وإن اعتبرناها مثمرة من كافة الوجوه . وإنما سأقول فقط إن بلداً من قبيل فرنسا يمكنه ، بل يجب عليه القيام بمجهود كبير حينما يتعلق الأمر بهدم تجارة منافسيها للاستيلاء عليها ، والاستحواذ على ملكية بلد سيضيف الكثير إلى مجدها وعظمتها وثرواتها . ولن أصرّ أكثر من ذلك على هذه النقطة لأعود إلى النقطة الأكبر والأهم والمتعلقة بالإنجليز . هل سيمكنهم الاعتراض ؟ هل سيستطيعون ذلك ؟ لا شك أنهم سيبغون ذلك إذا ما عرفوا بموضوع الحملة ، لكنه يمكننا أن نخدعهم بسهولة . إن الإنجليز على دراية تامة بكل ما يتعلق بالتجارة لكن لا يدركوا أن مصر تكفل لنا تجارة البحر الأبيض المتوسط والهند دون أن نخشى شيئاً من قوتهم البحرية . إن المكاسب التى يمكن الحصول عليها من الملاحة والتجارة فى البحر الأحمر لم تغب عن شركة الهند الإنجليزية . إن الفارس بروس Brusse ، عند عودته من أثيوبيا ، كان عليه إجراء مباحثات مع محمد بك للسماح لبواخر بلده بإحضار بضائع الهند مباشرة إلى السويس ، مع تخفيض حقوق الجمارك التى كانت تصل إلى أكثر من ١٥٪ . ورغبة من البك

فى زيادة دخل جماركه سمح له بما يطلب وقرر ألا يدفع الإنجليز إلا ٨ ٪ للجمارك وخمسين "بطاق" عن كل باخرة لمحافظ السويس مقابل الرسو بالميناء . وقد تم عام ١٧٧٣ إرسال باخرتين من البنغال محملتين بالبضائع إلى كل من مصر وتركيا إلا أنهما خفقتا عند مدخل البحر الأحمر . غير أن فشل هذه المحاولة الأولى لم يثن الإنجليز عن عزمهم . ففى ٢٢ ديسمبر عام ١٧٧٤ وصلت باخرتان جديدتان إلى السويس فى شهر فبراير من العام التالى . وقد قام محمد بك باستقبال رئيس الحملة بترحاب كبير . وتم بيع البضائع بالجملة لتجار البلد . وكان الإنجليز قبل ذلك يضطرون إلى إرسال بضائع الهند إلى جدّة وكانوا يدفعون مبالغ طائلة لباشا جدة وشريف مكة إضافة إلى ١٥ ٪ التى كان الإنجليز يضطرون لدفعها كقيمة لنفس البضائع فى جمارك السويس . إن باشا جدة وشريف مكة يحاولان إخفاق الإنجليز لإعادتهم إلى جدة . لكنهم لن يتمكنوا من ذلك إذا ما كان بكوات مصر يعرفون مصالحهم الحقيقية . وهذه الواقعة تثبت أن الإنجليز قد شعروا بالفائدة التى سيجنونها بتمرير جزء من بضائع تجارتهم فى الهند عن طريق مصر ، وأنه إذا ما كان هذا السبب يمكنه أن يحثهم على الاعتراض على حملتنا على مصر ، فمن جهة أخرى أنه سبب أدعى بالنسبة لنا لكى نستولى على بلد يبحث الإنجليز عن إحضار الروس لاستغلال المزايا التى يحتوى عليها فى حالة ما يستحيل عليهم غزو البلد لمصلحتهم هم . بل هناك الكثير من الأشخاص الذين يرون أن الإنجليز يرغبون بمجازفة هذا الغزو بأنفسهم . والأمر المؤكد أنهم قد قاموا بتكليف المهندسين بعمل الخرائط والرسومات الهندسية . ولنعود إلى السؤال الذى بدأت بطرحه ، أعتقد أن الإنجليز لديهم مصلحة حقيقة وستكون لديهم الإرادة الحاسمة لإخفاقنا إذا أحيطوا علماً فى الوقت المناسب بخططنا .

" بل إننى أجرؤ على القول أنه فى مثل هذه الحالة سيكون عليهم أن يعلنوا الحرب ضدنا . إلا أنه من الأرجح أن تحول الظروف التى تواجههم دون ذلك. وسأقول أولاً : إنه يمكن لفرنسا أن تخفى مشروعها وسوف أوضح ذلك فى مكان آخر من هذه المذكرة . لكن سأفترض العكس ، أن الإنجليز وقد احيطوا علماً بأهدافنا سيبحثون عن إعاقتنا . وفى ذلك الوقت سنكون إما فى حالة سلم وإما فى حالة حرب معهم . وفى كلتا الحالتين ، لا يجب أن نخشى شيئاً منهم إذا ما ساندتنا أسبانيا.

" فهل من المعقول أن يجروء الإنجليز بمجازفة ضياع أسطول ضخم فى قاع البحر الأبيض المتوسط على احتمال أن يهزمهم الفرنسيون والأسبان أو حتى ألا يصلوا فى الوقت المناسب ، لأن فرق جيشنا ما أن يتم إنزالها فى مصر ليس لديهم ما يخشوه من جيش بحرى لن يستطيع البقاء طويلاً فى البحر الأبيض المتوسط .

" وقبل أن تجازف فرنسا بالحملة ، عليها أن تتخذ الإجراءات لحماية حدودها ومستعمراتها وتجعلها فى مأمن من أى غزو محتمل ، وأن تكون على أهبه الاستعداد لتحول كل هجماتها على مصر . إن الهدف فى غاية الأهمية فى حد ذاته . كما يتعين عليها مواصلة المباحثات الدائرة بين إنجلترا والمستعمرات دون أن تخسر أياً من الطرفين . إن هذه الاحتياطات لن تكفى وحدها ، ويجب أن نبدأ مسبقاً وعلى التوالى بتسريب العديد من البواخر الحربية عبر طولون إلى الجنوب ، وبحجج مختلفة ، بحيث يكون هنالك من عشرين إلى خمس وعشرين أو ثلاثين باخرة حربية على أهبة الاستعداد كما يجب إحضار كل الأساطيل التى يمكن أن نستغنى عنها فى الأماكن الأخرى ،

والتى يمكنها أن تكون محملة عتادياً لحملة قصيرة المدى . كما يجب أن تتم عملية التموين فى أكبر قدر من السرّية فى المؤن والمعدات ، وبزعم بعض التحركات إلى كورسيكا وسنهتم بإشاعة هذا الخبر من باب التمويه ، كما نقوم بتسريب بعض فرق الجيش عن طريق بروفانس ، وأن تتجمع بها بقية الفرق من مختلف الأماكن عند بدء تنفيذ العملية .

" لقد قلت : إنه يتعين علينا أن نعمل بتضافر مع الأسبان ؛ وذلك ضرورى لا لكى يعاونوننا على غزو مصر ، ولكن ربما لمحاصرة الإنجليز . وفى مثل هذه الحالة يجب على الأسبان أن يقوموا بتشوين ذخائر مهولة فى كل من مدينة كادى وكارتاجينا .

" هل يمكن أن نتخيل أنه فى مثل هذا الوضع سيجرؤ الإنجليز على الاقتراب من البحر الأبيض المتوسط ؟ نظراً لاهتمامهم وانشغالهم بقلاقل مستعمراتهم ، وفى حالة إفلاسهم هذه وفى الوقت الذى يرون فيه أن أرصدتهم تتبدد ، هل سيمكنهم تسليح خمسين بارجة حربية على الأقل ودون أن يكون لديهم ضمان أو حتى الآمال المنطقية للوصول إلى هدفهم ؟ أين سيمكنهم الحصول على البحارة اللازمين ؟ إن كل شئ يعترض تنفيذ مشروعاتهم ، ولن يمكن أبداً لحكومة لندن أن تجازف بذلك .

"وإذا ما كنا فى حالة سلم معهم فلن يجرؤوا على خرقها . وإذا كنا فى حالة حرب ، سيهتمون بالدفاع عن أنفسهم ، وعن مستعمراتهم بل وعن مستعمراتنا ، لكن لن تكون لديهم القدرة أبداً على نقل قواتهم إلى البحر الأبيض المتوسط فى الوقت المناسب لإحباط خطتنا . ولم يعد من الممكن الخطأ فى التقدير ، أن الإنجليز فى موقف حرج ، ومن أينما نظرنا إلى موقفنا ، فقد

حان الوقت لندرك التفوق الذى يمكن لأسلحتنا أن تحققه علـى الإنجليز . ففـى العام الماضى كان هناك أسطول وجيش أسبانى يهددان البحر الأبيض المتوسط. فهل حاول الإنجليز الاعتراض بالقوة ؟ لقد أعلنت هم أسبانيا أن جيوشها ذاهبة إلى أفريقيا ، فيمكننا إذن أن نقوم نحن بنفس القول ، وعلى الإنجليز أن يكتفـوا بالصمت . إن هذا الحدث لمثال كاف لطمئنتنا .

" وعلى أى حال ، إذا ما كان من الضـرورى أن نتذرع بسبب مع أية قوى بربرية ، فمن السهل جداً اختلاق خصومة عابرة مع الوصاية علـى طرابلـس . إنـه أقرب بلد إلى مصر من ناحية الغرب وأسهل بلد يمكنه أن يخفى تطلعاتنـا . وعندما نستولى على مصر ، فإننى مسئول عن إعادة حالة السلم مع طرابلس . فيبدو ، بعد هذه التأملات ، ومثال أسبانيا ، أن تطمئن فرنسا من جانب الإنجليز .

" لكن ، قد يقال ، كيف يمكننا دفع الأسبان إلى التورط معنا فى حملة تبـدو كل مزاياها أنها ستعود على الفرنسيين ؟ إن الاجابة سهلة : إذا مـا اعتقدنـا أن مساعدة الأسبان ضرورية ولابد منها ، الأمر الذى أشك فيه ، فلا يوجد إلا أن نتقاسم معهم وأن نعرض عليهـم الانضمـام إلى الفرنسـيين فيمـا يتعلـق بتجـارة مصر ، وأن يقيموا فيها منشآت تجارية أسبانية ، وذلك دوناً عن تجار وملاحـى القوى الأخرى . إن مثل هذه الميزة ، التـى تعـد لها ثقلهـا بالنسـبة لأيـة دولـة أخرى ، يجـب أن تبـدد أيـة غيـوم فيمـا يتعلـق بالأسـبان . فـلا يجـب علينـا أن نخشاهم أو نخشى منافستهم وتجـارتهم . أفليـس هـذا الموضـوع بكـاف لإقنـاع الأسبان بأن يكونـوا علـى أهبـة الاسـتعداد حربيـاً فـى كـل مـن بلدتـى كـادى وقارطاجينا ؟ ولن يكون أمامنا إلا أن نقترح عليهم مستعمرة فى البحر الأبيض المتوسط ، وإذا ما كانت هناك سياسة حكيمة تقود حكومة مدريد ، فـلا يجب

عليها أن تصر على مثل هذا المقابل لأن الأسبان هم بالفعل الكثير من الممتلكات وأن شعبهم تعداده قليل . لذلك يتعين عليهم الاكتفاء باقتسام تجارة مصر والميزة العائدة عليهم مهولة عندما يرون الإنجليز وهم يغوصون فى الفقر بضياع تجارة الهند ومن ثم اضطرارهم إلى التخلى عن البحر الأبيض المتوسط والمنشآت التى يمتلكونها فيها .

" أفلا يمكننا أن نؤكد للأسبان أيضاً ملكية جزيرة مينوركا ما أن تسمح لنا الظروف بمهاجمتها بنجاح ؟ ومع ذلك ، وإذا ما أصر الأسبان على مقابل فى البحر الأبيض المتوسط يمكننا أن نتنازل لهم عن جزيرة كورسيكا . وإذا لم ترق لهم هذه الخطة ، يمكننا أن نصوب أنظارنا إلى تونس أو كريت . إن الأولى مملكة شديدة الخصوبة ولن يكون غزوها صعباً . وإذا كان الأسبان قد هاجموا تونس بدلاً من الجزائر لكانت حملتهم أكثر نصراً وأكثر فائدة . إن الموقع الجغرافى لتونس التى يحيط بها البحر من كل جانب تقريباً ، وضعف الحكومة، وثروات البلد كانت كافية بتسهيل نجاح الحملة عليها ووسائل الاحتفاظ بها . إلا أن الاستيلاء على جزيرة كريت أفضل من كل الجوانب . ذلك أن غزو مصر يتطلب – وفقاً لبعض الأشخاص– ضرورة الاستيلاء على كريت ، وأنه يتعين أن تقع هذه الجزيرة فى أيدينا أو فى أيدى حلفائنا . إن الأسبان سيجدون فيها ميزة الحصول على ملكية ثرية ، وسوف يجنبوننا تكاليف هذه الحملة الثانية ، وما علينا إلا أن نطالبهم بشرط مؤكد أن تكون كافة موانئ كريت مفتوحة لبواخرنا التجارية أو لبوارجنا الحربية مثلما ستكون موانئ مصر مفتوحة للأسبان . والأمر لن يعنينا أن تكون ملكية هذه الجزيرة تحت السيطرة الأسبانية بدلاً عن سيطرتنا .

" ومع تبديد المصاعب من جهة الإنجليز كأعداء ، ومن جهة الأسبان كأصدقاء، ألن نقابل عقبات من جانب القسطنطينية ؟ إن الأتراك فى حالة إذلال قصوى فلم نخشاهم : فالسيد الكونت دى سان بريست والسيد البارون دى توط مقتنعان بذلك . ودون مناقشة هذه النقطة فهناك وسيلة بسيطة . فمنذ مطلع هذا القرن وباشوات مصر وبكواتها قد استدانوا مبالغ طائلة من الفرنسيين وأغلبها لم يتم تسديده . وقد تسببوا لهم فى العديد من الإهانات ، من كل الأنواع ، دون مراعاة الاحترام الواجب للملك أو الولاء للامتيازات الأجنبية التى يتفننون فى اختراقها يومياً . إن هذه السلفيات ، وهذه الإهانات إضافة إلى الفوائد المتراكمة يمكن تقديرها حتى تصل إلى مبالغ طائلة . أعتقد شخصياً ، مثل البارون دى توط ، أنها قد تصل إلى أربعين مليوناً. وأقترح أن يقوم سفير الملك فى القسطنطينية بعرض الحالة على الباب العالى وأن يطالب بالسداد وبتعويض واضح عن كل الإهانات التى تعرض لها الفرنسيون فى مصر . وسوف يكون رد الباب العالى نفس ذلك الرد الدائم . فكل ما سنحصل عليه هو بعض الاعتذارات عن عدم قدرته على إجبار المصريين على الطاعة لأن سلطته غير معترف بها فى ذلك البلد . وسيكون من العدل والإنصاف أن نعلن له عندئذ أنه بما أن سلطته محتقرة هناك ، وأنه بلا أية قوى ، فإننا نتكفل بأخذ ثأرنا بأيدينا . وبعد هذه المحاولة ستكون الحملة عادلة ولها ما يبررها .

"وما إن يصبح الفرنسيون سادة مصر سيكونون أيضاً سادة الأتراك ، وستضع القهوة والأرز بالضرورة كل العثمانيين تحت أمرتنا . وعلى أى حال فيمكننا أن نأتى لهم ببعض التعويضات ، يمكننا أن نقدم لهم بعض العون ضد الروس إذا ما حاول هؤلاء فتح ممرات قناة البحر الأسود أو الدردنيل . وستكون بضعة بوارج حربية كافية تماماً .

" وهنا يأتى دور وضع خطة الحملة ، وتحديد عدد البوارج الحربية والفرق الحربية ، وتحديد نقاط أماكن الهجوم . إلا أن ذلك عمل يقع على أحد العسكريين الضالعين ، الذى يجب عليه أن يذهب لمعاينة الأماكن ليمكنه إرشاد الحكومة فى الإجراءات التى يجب اتخاذها . وهذا الاحتياط لابد منه لكى لا تخفق المشروع .

" وسوف أكتفى ببعض الملاحظات العامة . أفترض وجود أساطيل فى كل من كادى وقارطاجينا . يمكننا توجيه بعض البوارج من طولون للعمليات البحرية ولحراسة القافلة . وتبقى البوارج الأخرى على أهبة الاستعداد فى طولون ، لتنضم إلى الأسبان واعتراض دخول الإنجليز فى البحر الأبيض المتوسط ، إذا ما جرأوا على المجئ لقلقة حملتنا ، وهو ما لا أظنه أبداً . وهناك وسيلة أخرى لمنع الإنجليز ، وهى أن نقوم بتسليح أسطول فى مدينة بريست وأن نقوم بتسريب عدة فرق على السواحل جهة الغرب حتى يحاصروا أى إنزال للإنجليز . وباتخاذ هذه الحيطة يمكننا حتى الاستغناء عن مساعدة الأسبان. على أى حال فالتسليح يمكن أن يكون جاهزاً عن طريق الإعدادات التى سنقوم بها مسبقاً وسيكون الإنجليز فى شك ، مثل كل أوربا ، فيما يتعلق بحقيقة اتجاهنا الذى يمكن التمويه عليه بإعلان عملية على بربر طرابلس . إلا أننى أفضل السفن العتادية والبوارج المسلحة بالعتاد على عدد ضخم من البواخر التجارية لأن إبحارها أسرع وأنه من الأسهل قيادة قافلتها دون خشية أن تقوم الرياح ببعثرتها .

" إن اختيار القائد شديد الأهمية ، فهو وحده الذى يجب أن يحتفظ بالسر ، واختيار ضابط ماهر وجثور ، يمكنه الجمع بين قيادة القوات الأرضية والبحرية، هو خير شخص لهذه المهمة .

" وما أن يصل الأسطول إلى شواطئ مصر حتى يتم الشروع فـى الاستيلاء على الإسكندرية والعمل على تعزيزها . إن الاستيلاء على هذا الموقـع ، المجرد من أية منشآت دفاعية ، قد يكون أسهل مما نتصور . ففى هذه الفترة أنظر إلى الحملة على مصر وكأنها قد تمت بالفعل ، شريطة ألا نتورط باستخفاف فـى الأراضى وأن نتقدم خطوة بخطوة وبحرص شديد . ولن يتمكـن المصريـون بعـد ذلك من الحصول على أية نجدة من الخـارج : سينتهى بهـم الأمـر إلى قدرتهـم الذاتية ، أو بعبارة أخرى ستكون الحكومـة عبـارة عـن مجـرد الفـرق العثمانيـة والمماليك أو العبيد ، لأن الأمر لا يعنى المصريين كثـيراً فـى أن يعـانوا مـن نـير قوى أجنبية أو أن يظلوا خاضعين لطغيان البكوات والعثمانيين .

" وبعـد الاستيلاء علـى الإسكندرية ، فـإن القـاهرة والسـويس يجـب أن يستحوذا على اهتمام القائد . هل سـيتعين عليـه أن يبـدأ الهجـوم أرضـاً ، هـل سينتظر فيضان النيل ليصعد هذا النهر بفرقاطات صغيرة وزوارق إنقاذ مدفعية، ومراكب شواطئية لجر المدافع ؟ إن هذه نقطة لم أقررها بعد ولا يمكن البت فيها إلا بعد الحصول على معلومات من الموقع نفسه ، وهو ما يجب الاهتمام به قبـل محاولة المجازفـة بـأى شـئ . إننـى أعلـم أن القـاهرة بـلا أى حمايـة ، مثلهـا مثـل السويس وبقية المـدن المصريـة . وأعتقـد أنـه يجـب أن نقـوم ببنـاء قلعـة لحصـر القاهرة وبناء واحدة أخرى فى السويس لحماية الترسـانة التـى سنشـيدها علـى البحر الأحمر ، أما فى مصر العليا ، فسيكون الوقت سـانحاً للاستيلاء عليهـا ، وذلك بأن نقوم بعمل بعض معاقل على النيل على مسافات متباعدة .

" إن جيشنا سيكون عليه أن يخشى مصيبة واحدة ، وهى الطاعون . فالقائد سيكون عليـه اتخاذ كافـة الاحتياطـات الممكنـة ليحمـى فرقـه . ومـا أن يتـم

استتباب إقامتنا سيمكننا أن نزيح العدوى عن مصر بسهولة وذلك بعمل محاجر صحية على شواطئ البحر الأبيض المتوسط وعند الحدود النوبية .

" وقد يكون نجاح هذه المهمة غير كامل إن لم تكن مدعّمة بحملة أكثر اعتباراً منها ، وإن كان يبدو أنها وحدها هى التى يمكنها أن تجعل المزايا التى يتعيّن علينا الحصول عليها من غزو مصر مؤكدة . فلنلق بنظرة خاطفة على خريطة البحر الأحمر . إنه يلامس مصر من ناحية الشمال عند السويس ، وينفتح جنوباً على المحيط عبر خليج باب المندب . وهذا الممر شديد الضيق وفى منتصف المعبر توجد جزيرة مهون التى يستحسن أن نستولى عليها . إننا نجهل ما إذا كانت آهلة بالسكان ، إو إن كانت ملكاً لأحد الأمراء العرب أو لملك اليمن . وسوف يمكننى عما قليل تقديم المعلومات الدقيقة فيما يتعلق بهذه المنطقة والتى بناء عليها سيكون من السهل تحديد الإجراءات الضرورية لنصبح سادة ذلك الممر وأن نتحصن فيه بحيث لا يمكن للإنجليز أن يطردونا منه ، إذا ما كان الأمر فعلاً كما سمعت ، إنه مفتاح البحر الأحمر والنقطة التى يجب أن تؤكد لنا سلامة تجارة الهند والبلدان الواقعة على البحر الأحمر مثل موكا وجدة والموانئ الأخرى لشبه الجزيرة العربية .

" وسيكون ذلك بمثابة الحاجز من جهة الهند . (ومع ذلك أعتقد أنه يمكننا الشروع فى ذلك دون أى مخاطرة ، أما جزيرة كريت فهى من جهة البحر الأبيض المتوسط ، إذا ما اضطررنا إلى الاحتياج إليها ، وذلك ما أشك فيه . وإذا ما نظرنا إلى هذه الجزيرة على أنها مستعمرة فهى تحوى ثروات مهولة وتجارة ضخمة . أما كموقع ، فهى تحمى تجارة فرنسا مع مصر ، وتسيطر خاصة على مجموعة جزر الأرخبيل . إن وضع بضعة بوارج حربية فى مواليها

وفى مراقبة سواحلها ستضع الملاحة فى مأمن عن أية مهانة . إن الحملة على جزيرة كريت يمكن أن تكون تالية للحملة على مصر ، إلا إذا رغب الأسبان بالقيام بذلك الغزو . إن القوى التى تستولى على ميناء "سود" سرعان ما سوف تسيطر على الجزيرة بأسرها : يبدو أنها أهم نقطة بها على ما يبدو ، لكنه لا يمكننى تأكيد شئ .

" إن كل التفاصيل الخاصة بالغزوة لم أنطق بها إلا كفكرة عامة عن الحملة ؛ ويمكن ألا تكون دقيقة ، ولا حاسمة ، ولابد من أن يقوم بمراجعتها أشخاص أكثر دراية بالموضوع وخاصة من قبيل الرجل الحربى الذى سيتم إرساله إلى الموقع ، ولا يسعنى إلا أن أكرر أن ذلك بمثابة احتياط أولى ولابد منه .

" إن سهولة الاحتفاظ بالاستيلاء على مصر لا يمثل أية مشكلة . فلا يمكن مهاجمتها إلا من جهة البحر الأبيض المتوسط ، وإنشاء بعض الحصون ستضعها فى مأمن عن أية إهانة . فهى لا تتعرض لشئ من جهة النوبة ؛ كما أن صحارى مملكة طرابلس البربر ، تلك التى نقابلها قبل الوصول إلى جبال فلسطين ، هى بمثابة حواجز تفصلها عن بقية العالم . على أى حال ما إن يصبح الفرنسيون سادة النيل سيقيمون خطاً دفاعياً .

" ويمكن أن نفترض أنه بعد بضعة أعوام ، حينما يتم عمل كافة المنشآت ، سيكون فيلق مكون من ثمانية أو عشرة آلاف ، أكثر من كاف لحماية كل هذه المملكة ولاستتباب الأمن فيها . والحق يقال سيتعين إبدالهم كل سبعة أو ثمانية أعوام لتجنب انعكاسات المناخ إذا ثبت أنه سيؤثر عليهم بالتراخى ويجعل منهم رجالاً مخنثين وغارقين فى ملذاتهم الحسية . ومن الأرجح أن نقوم فى هذه الفترة بتكوين فرقة بوليس من مسيحى البلد وأولئك الذين سيفدون إليه

للإقامة قادمين من فلسطين وسوريا . وسنستخدمهم بجدارة فى البوليس ، بل وحتى ضد العرب ، إذا ما فكروا فى الثورة فى مصر ضد الفرنسين . ولا يحتاج الأمر إلا إلى بضعة قوانين واضحة ومتناسبة مع عادات وتقاليد سكان مصر ، وحكومة عادلة ، وبضعة رتب ودرجات وبضعة مكافآت لأهم أعيان البلد ، وتأكيد سلامة ملكياتهم وأموالهم ، لكى نضمن ولاء هذه الشعوب لفرنسا - خاصة أن هذه الشعوب ستتنفس الصعداء بعد أن عانت عدة قرون تحت طغيان بشع . وستكون الثروات التى ستجنيها فرنسا من مصر هى المكافأة الكبرى للخير الذى تكون قد قامت به للسكان بإشراكهم فى الأمة وبنزع القيود الحديدية التى فرضها عليهم الطغاة على التوالى .

" إن الإنسانية ستبدأ بالمطالبة بحقوقها فى بلد لم يتم الاعتراف بها فيه أبداً لفترة طويلة ؛ وسنرى أخيراً ازدهار مملكة خصبة ، تعد أساساً مورداً مؤكداً ومضموناً لخزائن فرنسا العامة ومجالاً لحسرة بقية الدول الأخرى ...

٨- غزو مصر هل هو ضرورى أو هل سيصبح ضرورياً ؟

" قد يكون تناول هذا السؤال شيئاً إضافياً لا معنى له ، إذا ما كانت مزايا غزو مصر بهذا القدر كما يبدو لى ، وإذا ما اعترف الشخص المسئول عن الذهاب إلى الأماكن نفسها وفحصها وأقر أنى لم أكن مبالغاً أو متوهماً حول احتمالات هذه الحملة وإمكانياتها .

" ومن الإنصاف أن نقول أيضاً أن الحكومة سيكون لديها أكثر من سبب لتتخذ قرارها إذا ما وضحّنا لها أهمية وضرورة هذه الحملة . وهذا السبب أو التذرع موجود إذا ما كانت التجارة الفرنسية مهددة فى بلاد المشرق بانهيار قريب ، أو إذا ما قاربنا اللحظة التى نرى فيها هذا الفرع من ثرواتنا ينتقل إلى

أيدى أجنبية ومنافسة ، وإنه لم يعد من الممكن لنا أن نبقى فى بلـدان المشـرق ، وإذا كان العلاج الوحيد لمثل هذا الداء الفاحش ليس إلا غزو بلد سيؤدى إلى إبادة مشاريع أعدائنا ويزيد من تجارتنا فى البحر الأبيض المتوسط بأن يعطينا السيادة التى لن يتمكن أحد من أن ينزعها عنا بعد ذلك ، وبأن يضع بين تجارة أسيا وأفريقيا وجزء كبير من تجارة أوربا . عندئذ يتم الاقتناع بأن مصر هى البلد الوحيد فى البحر الأبيض المتوسط الذى يقدم كل هذه المزايا .

" وإذا ما صدقنا الآراء التى وصلتنا من فيينا بل ومن القسطنطينية ، فإن الروس يهتمون حالياً بتنفيذ مشروع لن يسمح لنا بأن نظل مجرد مشاهدين للأحداث . فأياً كان موقف ميزانياتنا ، وأيا كانت أسباب الحكومة لنتمسك بالسلم ، واستبعاد كل ما يمكنه إشعال الحرب ، فمن المحال أن تنظر فرنسا بعدم اكتراث إلى انهيار تجارتها وملاحتها . إن الحكمة تقتضى البحث بتوخى الحرص والمهارة عن استبعاد هذه المحنة . لكن عند وصولها فإن السياسة الحكيمة تقتضى جهوداً جمة لمناقشة وضع تلك الثروات التى يحاولون انتزاعها منا . إننا نقترب من لحظة حاسمة إذا ما بدأ الروس مشروع مهاجمة القسطنطينية عن طريق البحر الأسود والدردنيل ، وهدم الامبراطورية العثمانية . وهناك ادعاء بأنهم يعدون لإنزال ضخم فى الغابات المجاورة للبوريستين والدون وأن كل قطع الخشب المرقمة قد تم نقلها من آزوف ومن كيلبورن إلى كرسن وجنيكاله وتم وضعها عند مضيق بحر زباخ ، كما أنهم يرسلون أيضاً مختلف أنواع عتاد الحرب والمؤن الغذائية . إن الروس يستخدمون النقود التى يضطر الأتراك إلى دفعها لهم بموجب الاتفاق الأخير ، لبناء هذا الأسطول الذى سيتكون من عشرين بارجة حربية يجب الانتهاء من بنائها فى أقل من عامين . كما يقومون فى نفس الوقت بإعداد أسطول مهول فى كرونستاد والذى

سيقوم جزء منه بعمل ثورات هذا العام فى بحر البلطيق . وسوف يكون ذريعة للتمويه على حقيقة أهدافه عندما يحين الوقت . كما أنهم يرسلون فرقاطات إلى الأرخبيل . كما وصلت لدينا الأنباء بأن كثيراً منهم قد وصل إلى موانئ إنجلترا. والسبب الذى يتذرعون به لذلك التسليح الصغير خاص بالحماية التى تريد الامبراطورة أن تضفيها على التجارة الخاصة برعاياها : إلا أن هدفها الحقيقى هو زيادة وتدعيم وتمويل فريق الروس بالسلاح - ذلك الفريق المكون من كل الذين يدينون بالديانة اليونانية ذلك أن روسيا يجب أن تعتمد أساساً على كل اليونان ، والمور ، ومقدونيا ، والأبير وجزر الأرخبيل وأماكن عديدة من الأناضول . إن مدينة ليفورن ، حيث تقوم روسيا أيام السلم بمساندة قائد روسى ، هى موقع لقاء هذا الأسطول وستكون مستودع كافة الذخائر ، والنقطة التى ستنطلق منها كافة الأوامر التى سترغب الامبراطورة فى إصدارها إلى المشرق . ويتعيّن على هذا الأسطول أن يعد كل العمليات ووسائل تسليح اليونانيين ؛ كما أن سوء التفاهم وأخطاء الحرب الأخيرة سوف ترشد الروس إلى الإجراءات التى يجب اتخاذها . إن الاثنتى عشرة بارجة الموجودة فى البحر الأسود يجب أن يتم تجهيزها وتموينها وإبحارها فى الفترة المحددة من حكومة سان-بطرسبرج . وسوف يرافقون بحمايتهم الجيش الأرضى المقيم فى بولندا والذى يتم تدعيمه يومياً بحجة استتباب النظام ! إن كل هذه القوى ستنطلق دفعة واحدة وتتجه إلى القسطنطينية للاستيلاء عليها وطرد الأتراك إلى آسيا .

" تلك هى الآراء التى وصلت الوزارة . ويضيفون إليها أن مشروع الامبراطورة يرمى إلى أن تقيم فى القسطنطينية مقر إقامة الحكام الروس وتجديد الامبراطورية اليونانية التى ستدمج فيها امبراطورية الروس . الأمر لا يعنينا عما إذا كان هدف الامبراطورة هو ذلك أو إنها ترمى إلى إرسال نائب الملك ؛ إلا

أن كل ما يعنينا هو الحيلولة دون تنفيذ هـذا المشـروع أو أى مشـروع مماثل ، وإلا فسيكون على فرنسا أن تتخلى بالتدريج عن كل تجارة البحر الأبيض المتوسط .

" ولا يجب التشكك فى احتمال أن تتم المشاريع الروسية بتضافر مع الإنجليز ، الذين قد تمنحهم روسيا حق استقرار ما فى الشرق ؛ كما قد تمنح الإيطاليين ، الذين سينضمون إلى روسيا بحثاً عن استعادة جزء من ممتلكاتهم القديمة ، بل وربما تتحالف أيضاً مع الامبراطور . إن اتفاقية تقسيم بولندا يمكنها أن توحى بفكرة اتحادات أكثر فائدة وسهلة المنال سواء كانت تطلعات روسيا الحالية قد تنجح بفضل آزوف Azof ، وكيرش Kerche وجنيكال Jennicale ، أم لن يمكنها تحقيقها . والشئ المؤكد هو أن نقول إن كل الجهود التى تقوم بها لكى يصبح لديها قوات فى البحر الأسود إنما لتهدد القسطنطينية بصورة قريبة أو بعيدة ، وبالتالى فهى يجب أن تحسم موقفنا بغزو مصر . وإذا ما كان هناك ما يحول دون تبنى هذا المشروع ، فلا توجد سوى وسيلة واحدة ، هى مساندة السلطان ، رغم أنفه ، وإرسال بوارج لحماية ممر البحر الأسود ، وأن نقيم سريات مدفعية بواسطة مهندسين مهرة ، وأن نساندهم بفيلق من الفرق الفرنسية كما نقوم بتسليح أسطول ضخم فى مدينة طولون ليهاجم ويهزم أسطول الروس عندما يحاول دخول القسطنطينية عن طريق البحر الأسود أو الدردنيل . إن الشكاوى التى عانينا منها فى الحرب الأخيرة والتى لم يتم تعويضها بعد ، هى أسباب كافية لنعلن الحرب ضدهم عندما يحين الوقت . ومن المعلوم أن مثل هذا المشروع سيكون باهظ التكاليف ، ولابد له من النجاح ، لكن ما هى النتيجة؟ أن نجد أنفسنا حيث كنا منذ بضعة أعوام – وأن نكون قد تكبدنا مصاريف ضخمة دون الحصول على أية ملكية بوضع اليد .

" وإذا ما أردنا أن نأمل بعمل نفس الشئ فقد يكون علينا أن نتكبد تضحيات كبرى : ولا يمكننا أن نأملها . إن الفوضى السائدة فى كل مكان فى تركيا ، ومنهم الباشوات الذين لا يهتمون إلا بالإثراء دون خشية الباب العالى، والإهانات التى إذا ما زادت على هذا الحد ستضطرنا إلى ترك كثير من منشآتنا فى تركيا دون أن نحصل على أى تعويض نظراً لضعف السلطان وضعف ديوانه، أى إن كل شئ يعلن لنا أننا لا يجب أن ننتظر أية تعويضات أو أية حماية إلا من قواتنا وشجاعتنا .

" وهناك سبب آخر قوى قد يجعل غزو مصر ضرورة لابد منها . فأياً كان أمر حب الإنجليز مع مستعمراتهم ، فيمكننا أن نتنبأ دون خشية أى خطأ فى التقدير ، إنهم حيال لحظة انفصال تام عنها أو إن ذلك لن يتأخر حدوثه إلا بضعة أعوام .

" فالسياسة الحكيمة تقتضى البحث عن كيفية الاحتفاظ بمستعمراتنا فى تبعية الدولة ، وإن كان هذا الأمر يمكن إرجاؤه حالياً . إلا أن اليوم قد يأتى حيث تدخل فيه فى اتحاد المستعمرات الإنجليزية . وإذا ما حاولت فرنسا الاعتراض عندئذ : سوف تُبعد عنها وإلى الأبد مستعمراتها الخاصة والمستعمرات الإنجليزية - الأمريكية . وقد تدفعها مصلحتها إلى التخلى عنها وتحريرها لكى تستفيد من هذا التصرف الإجبارى لعقد اتفاقيات تجارية مثمرة على أن نستغل بمهارة الكراهية التى ستظل طويلاً بعد انفصال إنجلترا عن المستعمرات . إن المزايا التى سنحصل عليها قد تعوضنا خسائر فقدان مستعمراتنا إذا ما تم ذلك بأيادٍ نشطة . لكن ، كم ستكون نصرة فرنسا أنها تكون قد تنبأت فى الوقت المناسب بهذا التغيير وأن تكون قد رتبت كل شئ

لتضع تحت إمرتها وتحت أعينها مستعمرة ثرية سوف تزودها بالسكر والنيلة وتقريباً بكل المنتجات الأمريكية .

" إلا أنه قد لا يتم إقرار مشروع الاستيلاء على مصر فى الظروف الحالية ، ومن المحتمل أن نتولاه ذات يوم . ومن هنا أعتقد أنه يتعين عليّ أن أقترح على سيدى أن يختار السيد البارون دى توط لتفقد موانئ المشرق التى أوضحنا أهميتها تحت أعينّ الملك . ذلك لأن قدراته ورتبته تجعلاه خير من يقوم بهذه المهمة . ويجب إضافة بند سرى إلى التعليمات الخاصة بالسيد دى توط لنعهد إليه ببحث إمكانيات غزو مصر ، وأفضل الأماكن الخاصة بالإنزال ، وما هى قوات البلد ، وما هى القوات التى يجب على فرنسا أن تستخدمها فى هذه الحملة ، كما سنطلب منه عمل خرائط المدن الساحلية وأن يعاين أماكن الهجوم والدفاع ، أى فى كلمة واحدة الأوامر التى سيكون من الضرورى إصدارها لغزو مصر والاحتفاظ بها وحكمها . إن السيد دى توط يتمتع إضافة إلى معلوماته عن التجارة بقدرات مهندس بحرى ومدنى ورجل مدفعية ، كما أنه يجيد لغة البلد ، وهو بمفرده يمكنه إنجاح هذه المهمة الدقيقة بمهارة . ويمكنه أن يبدأ مهمته بمصر ، ثم يعود إلى فرنسا ليحيط المسئولين علماً بعملياته ويقوم بتسليم الخرائط والمشاريع ، التى سنستعين بها إذا ما اضطرت الظروف إلى ذلك . وأن نجعله يواصل مهمته فى بقية موانئ المشرق الأخرى إذ من الأفضل ألا نجازف أبداً .

" ومن باب الحرص ، علينا أن نبدأ من الآن بإعداد المواد اللازمة التى سنستخدمها فيما بعد حتى وإن كانت حالياً غير ذات فائدة . فمن الميزات الكبرى أن نكون على أهبة الاستعداد لأية ظروف وأحداث .

" يجب أن أتوقف عن الكتابة فالمذكرة أصبحت شديدة الطول . وأشعر أنني تركت العنان لحماسي ، الذى لابد من وضع حدود له . إلا أن ذلك سيكون تبريرى لدى الوزراء الذين يقدرون أسبابي ويعذرون ضعف ريشتي غير المتمرسة على تناول مثل هذه الموضوعات الهامة .

" لقد قمت بعرض أفكارى ورأيى ، وإذا ما استطاعت أن تحوز قبول الوزارة سأكون شديد السعادة . وإذا ما كنت قد أخطأت وأسأت الفهم والتقدير وأفرطت ، فأرجو أن يتم إرجاع ذلك العمل الذى أتممته على عجالة على أنه دليل على حبى للخير ورغبتى فى أن أكون مفيداً " .

توقيع : سان – ديدييه

وما أن تقدم سان ديدييه بذلك التقرير حتى تم تحديد سفر البارون دى توط إلى مصر لاستطلاع أرضها وجمع كل البيانات التى لا يمكن الحصول عليها إلا من الموقع نفسه ووصل البارون دى توط إلى الإسكندرية فى شهر يوليو١٧٧٧ فى تلك المهمة السرية ولم يكن ملماً بكل تفاصيلها ... وفور وصوله تلقى خطاباً من القنصل العام لفرنسا مرسل من قصر فرساى ، مرفق معه تلك الوثيقة التى كتبها سان ديدييه استكمالاً لتقريره وضمنها كل الأسئلة التى قال عنها فى تقريره السرى السابق ، إنها بحاجة إلى من يدرسها على الواقع ويجيب عليها بدقة حتى يمكن البت فى التفاصيل التنفيذية للحملة على مصر...

وتتضمن هذه الوثيقة ثلاثين سؤالاً هي :

١- دراسة إذا ما كانت أفضل منطقة للإنزال بين دمياط والإسكندرية ، فعلى ما يبدو أنها تقع جهة الإسكندرية ، أى بينها وبين أبى قير ، فيجب الحصول على معلومات أكيدة حول كل هذه المنطقة من الساحل ، ودراسة المسافات التى يمكن للبواخر أن تقترب منها ، وما هى التسهيلات المتاحة لرسو قوارب الإنقاذ وإلى أى درجة يسيطر الشاطئ على البحر .

٢- معرفة إذا ما كان هذا الشاطئ مفتوحاً ومتساوياً ، أو إن كانت به أماكن آمنة قد تساعد الذين سيحاولون الدفاع عنه من الوديان أو التلال والغابات والسياج أو المنازل . ذلك أنه من المحتمل أن ينقلب الجو عند الوصول إلى الشاطئ ويحول دون عملية الإنزال ويعطى الوقت للأعداء أن يتجمعوا بين الإسكندرية وأبى قير ويعوقون إنزال قواتنا .

٣- القيام بعمل خريطة للإسكندرية وشوارعها وأسوارها وطبيعة الأرض المحيطة بها ، هل هى مستوية ، جبلية ، مكشوفة أو محمية ، خصبة أم غير منزرعة .

٤- معرفة إلى أى مدى يمكن السيطرة عليها سواء عن طريق البر من جهة الشرق ، أم عن طريق لسان الأرض الممتد بين البحر وبحيرة سبكة Sebaca ، ومعرفة طبيعة أرض هذا اللسان .

٥- معرفة إلى أى رقم تقريبى يصل تعداد سكان الإسكندرية ، وعدد السكان الذين يمكن أن يتحمسوا للمشروع أو يعترضوا عليه ، ونوعية وعدد الفرق التى يمكن أن توجد لحظة الإنزال ، وكذلك المدفعية والأسلحة والذخيرة التى قد توجد بها .

٦- معرفة المحلات والأسلحة وكافة أنواع الموارد التى يمكن أن نجدها كالقمح ، والأرز ، والأعلاف ، والتبن ، واللحوم ، والأخشاب والنقود .

٧- دراسة طبيعة الأرض والمكان الذى يمكننا أن نقوم بتدريباتنا عليه وأن نتطور ونعسكر فيه بعد الإنزال ، بين قناة الإسكندرية ولسان بحيرة إدكو . وما هى الموارد التى يمكن أن نجدها لنتحصّن مباشرة ضد الجنوب ، عن طريق الغابات والسياج والمنازل والقنوات ، أو إن كان علينا أن نعتمد على أنفسنا فحسب .

٨- معرفة إن كان من الممكن الحصول على مياه صالحة فى الموقع وإن كان يمكن الحصول على أعلاف وأخشاب وتبن .

٩- معرفة إذا ما كانت الأرض صلبة ، صالحة للمعسكرات وفى مأمن عن فيضانات النيل .

١٠- ما هو زمن وفترات فيضانات هذا النهر ، وعلى أية أماكن تفيض مياهه فى مصر السفلى ، وما هى الأماكن التى تظل مكشوفة ، وما هى التحركات التى تفرضها هذه الفيضانات على السكان ، وما هى التغييرات التى تطرأ على المواصلات ، وما هى مزايا أو عدم مزايا كل ذلك وانعكاسه على عملية الغزو سلباً أو إيجاباً .

١١- دراسة قناة الإسكندرية من حيث عرضها وعمق المياه بها ونوعية الشطآن ، وإن كانت صالحة للملاحة فى كل وقت ، وإن كان يمكن عبوره فى مكان ما ، وأين تقع هذه المعابر وأخيراً التغيرات التى تطرأ على مياهه ؟

١٢- ما هو ارتفاع منسوب الأرض التى تمر بها هذه القناة بين بحيرة إدكو وقناة دمنهور - الوحوش وما هى طبيعتها ؟

١٣- ما هى مختلف الطرق التى تصل أرضاً بين الإسكندرية والقاهرة ، وما هى درجة متانتها ، وكيف يتم عبور القنوات أو الترع والأنهار ، وما هى نوعية الكبارى وطريقة بنائها ، هل هى متينة ، وما عرض أماكن المرور عليها ، وما هو أقصر طريق للقاهرة ، وأفضلها بعيداً عن الفيضانات ؟

١٤- هل يوجد طريق ممهد أو ميسر لمصر السفلى ، وما هى الاتجاهات التى يجب سلوكها والأماكن التى يمكن المرور منها للذهاب إلى رشيد ، ودمياط ، والتينة ، وبلبيس ، والقاهرة وإلى الفيوم . وكيف يمكن عبور القنوات أو الأنهار ، وهل يمكن للعربات أن تتبع الطريق وما هى الفترات التى لا تكون فيها صالحة للاستخدام ؟

١٥- ما هو ارتفاع وطبيعة سلسلة الجبال أو المرتفعات التى تحد مصر السفلى من جهة الغرب ، من البحر الأبيض المتوسط إلى ما بعد القاهرة ؟

١٦- القيام بعمل الخريطة وجمع كافة المعلومات المطلوبة للإسكندرية لكل من القاهرة والسويس والتينة ودمياط ورشيد ، وكذلك عمل الملاحظات الخاصة بطبيعة الطرق الواصلة بين كل مدينة من هذه المدن للانتقال منها إلى المدن الأخرى .

١٧- ما هو عرض وعمق النيل فى القاهرة عندما يصل إلى أقصى ارتفاع وإلى أقصى انخفاض ؟

ومعرفة ما إذا كانت هناك كبارٍ على النيل فى القاهرة وقبل أو بعد هذه المدينة ، وكذلك جمع نفس المعلومات فيما يتعلق بكل فرع من فرعى النيل المكونان للدلتا .

١٨- معرفة ما إذا كانت مختلف القنوات التي تمر بمصر السفلى ما زالت قائمة وإن كان هناك غيرها ؛ وفي أى حالة هي وما هي إمكانية إعادة اصلاح هذه القنوات وما هي الطرق الصالحة لذلك وكيفية تنفيذها ، وإن كان الأمر سهلاً أم صعباً ، يتطلب زمناً طويلاً أم قصيراً ، وإن كانت هناك كبارٍ على مختلف هذه القنوات ، وما هي نوعيتها وما هي مقاسات عرضها بصفة عامة ؟

١٩- معرفه إذا ما كان توحُّل هذه القنوات والمياه الراكدة هي التي تولد الطاعون في مصر أم إنه يصيبها عن طريق العدوى ، وإن كان هذا المرض يظل طويلاً وما هي الفترة التي عادة يظهر فيها ، وإن كانت هناك وسيلة لحماية مصر من هذا الوباء ، وإن كانت مداواة هذه القنوات لا تؤدى - على العكس - إلى إيجاد الطاعون أو المساعدة على انتشاره ، وما هي الطرق التي يمكن استخدامها لضمان سلامة الجيش الذى سيتم إنزاله لغزو هذا البلد ؟

٢٠- معرفة إذا ما كانت كل أرض الدلتا شديدة الخصوبة ، وإن كان بها أخشاب مزروعة أو على هيئة غابات ، وما نوعها ؟ وهل تغرق الدلتا بأسرها أثناء الفيضانات الكبرى أم أن هناك أماكن تظل جافة ، وما هو ارتفاع هذه الأماكن ؟

٢١- الحصول على معلومات حول طبيعة أرض بر السحيات والوادى أو الخور ، والمعروف باسم بحر بلامه ، أو إن كان هناك نهر بلا مياه ؟ هل هو ضيق الاتساع ، عميق أو من الصعب عبوره ، وإن كان القاع والشطآن غير منزرعة أم بها أشجار ؟

٢٢- ما هي طبيعة وادى التيه من النيل إلى البحر الأحمر وإن كانت الارتفاعات التي تحد جانبه الشمالى تنحدر جهة الوادى ، أو إنها مدرجة ، أو حادة أو قليلة الانحدار ، وهل هي مكشوفة أم بها أشجار ؟

٢٣- هل مدينة السويس مكشوفة أم لا ؟ وهل من الممكن عزلها والتحصين بها هي وميناتها ؟ وما هي مساحة ذلك الميناء وما هي أكبر أنواع البواخر التي يمكن أن تدخله ، وما هي تسهيلات الدخول والخروج والرسو به، وما هي الضمانات من سوء الأحوال الجوية ؟

٢٤- نفس الملاحظات حول مدن وموانئ الإسكندرية ، ورشيد ، ودمياط، وما هي سهولة أو صعوبة تحصين القاهرة ؟

٢٥- ما هي طبيعة البلد في الاتجاه من السويس إلى التينة وعلى مدى سبعة أو ثمانية أميال عن يمين وعن يسار هذا الاتجاه ؟ هل هي أرض مسطحة ، جبلية، مكشوفة أم بها أشجار ، مزروعة أو بور ، آهلة بالسكان أم صحراء، وما هي المسافة الحقيقية بين السويس والتينة ؟

٢٦- وما هي المسافة من السويس إلى الطرف الجنوبي لبحيرة شيب ؟ وما هي أثار أو بقايا القناة الموصلة من النيل إلى البحر الأحمر ؟ وهل هذه القناة قد تم استكمال حفرها فعلاً أم لا ، وهل هي صالحة للملاحة ؟ وهل العمل المطلوب لإعادة إصلاحها مهول ؟ وما هي طبيعة الأرض التي يجب فحتها ؟

٢٧- ما هي المسافة الحقيقية للحبزة ، على بحيرة شيبا عند سثرون ، على بحيرة تنيس ، وما هي طبيعة هذا البلد بين هاتين النقطتين ؟ وهل هو خارج نطاق الفيضانات ؟

٢٨- هل اليهود الذين يقطنون مصر السفلى يمكن استمالتهم لصالحنا بسهولة ؟ هل هم تجار ، نشطون ويصلحون للمهام الحيوية حينما تكون ذات نفع مادى مثل يهود أوربا ؟

٢٩- ما هو تعداد فرق المشاة والفرسان الأتراك التى سيكون علينا محاربتها، وما هو عدد المماليك بالتقريب ؟

٣٠- هل يمكن الحصول على خيول لعمل فرق خيالة وفرق خفيفة عن طريق اليهود أو عن أى طريق آخر حتى لا نضطر إلى شحنها من أوربا ؟

" تلك هى المعلومات التى من المفيد الحصول عليها حتى نتمكن من وضع مشروع الترتيبات ، والعمليات ، والاحتياطات الضرورية للغزو وللحفاظ على بلد يمثل لفرنسا أضمن وسيلة لعرقلة النظرات الطامعة لكل من روسيا وإنجلترا، ولكى تصبح سيدة التجارة مع الهند دون أن تخسر شيئاً ، وأن تضع عقبات لمخططات الإمبراطور وأطماعه فى إيطاليا ، وأن تؤكد ملكية إمبراطورية البحر الأبيض المتوسط لأل بوربون ، وأن تخضع عما قريب نفوذ ماهون وجبل طارق تحت سلطتها ، وتمتلك لنفسها أخيراً مستعمرة للسكر والنيلة ، مستقلة عن أمريكا وعن المصير الذى يمكن للمستقبل أن يعده لها .

" الغزوة المعنية لا تمثل مصاعب جمة ، إذا لم يكن علينا إلا أن نهزم المماليك والأتراك الموجودين فى مصر . إلا أن الأمر الذى يجب أن نهتم به هو كيفية الاحتفاظ بهذا الغزو قبل القيام به ، حتى لا نتعرض لخطر ضياع ثمار العناية به وكل ما نكون قد تكبدناه من تكاليف ، ولا نرى ما يمكنه أن يقلقنا إلا من جهة مضيق السويس مفترضين أولاً أنه بعد الغزو سوف نهتم بفصل جزيرة ميهون وميناء السويس وبذلك نصبح مطلق سادة البحر الأحمر .

" أما فيما يتعلق بالمضيق ، فإن أفضل وسيلة لمواجهة أى تدخل مسلح من الجيش التركى أو العربى فهى الاكتفاء بأن نقوم بحفر قناه بذكاء وبصورة صالحة للتجارة تسد المضيق ، وأن تكون صالحة باستمرار لاستيعاب المراكب

المسلحة لكل من سلاح الفرسان وسلاح المدفعية ، من أجل حمايتها ، على أن نزود الشاطئ الخارجي ببضعة قلاع على جانبه . كما يمكننا إضافة العديد من الوسائل الأخرى للدفاع إلى ما قلناه للتو ، وأن نعدّ عند الضرورة جبهات دفاعية كخط ثان وثالث مع مراعاة الاهتمام بالتزود بكل شيء كالمواصلات والمنافذ والطرق والكباري حتى يمكن أن نتنقّل بسرعة حيثما تستدعي الضرورة ذلك" .

وما أن انتهى البارون دى توط من القيام بمهمته ، كتب التقرير الذى نورد منه جزءاً في الصفحات التالية .

تقرير المهمة السرية للبارون دى توط

يتكون التقرير السرى الذى رفعه البارون دى توط ، بعد قيامه بالمهمة السرية التى أسندت إليه ، من ثلاثة أجزاء هى : "مصر وتجارتها وعلاقاتها الحالية ؛ المزايا التى ستحصل عليها فرنسا من الاستيلاء عليها ؛ وسائل الاستحواذ والحفاظ عليها بلا مقاومة" .

والتقرير بصفة عامة لا يكاد يختلف عن ذلك الذى كتبه سان ديدييه ، ونورد فيما يلى خواتيم النقطة الثانية المتعلقة بالمزايا التى ستحصل عليها فرنسا من الاستيلاء على مصر والاحتفاظ بها لاستغلالها ونهب خيراتها ...

وبعد أن تناول فى بداية هذه النقطة المزايا التجارية تطرق إلى المزايا التالية :

" إن الميزة الكبرى لغزو مصر تتمثل فى موقعها ، فهى تضمن لفرنسا البديل السهل لكل تلك المستعمرات البعيدة التى لا تزودها شيئاً إلا بأعلى التكاليف والأسعار ... إنها تجعلها أقرب منالاً ولا تُبعد عن الوطن كل الذين ينتقلون إليها ؛ إنها تضع الإدارة تحت رقابة الملك ووزرائه ؛ ونفس هذا الوضع يضمن لنا حيازة يسهل الدفاع الذاتى عنها ولا يمكن لأحد أن ينازعنا فيها . إن علاقاتها التجارية تسمح لفرنسا فى نفس الوقت بسيادة مؤكدة بحيث ستضع تحت سلطتها مفتاح الأبواب التى لن يمكن لأحد أن يستغنى عنها دون أن يعطى لتجارته مميزات تؤدى إلى إلغاء تجارة الأمم التى ستؤثر إتباع الطريق القديم . كما سنلاحظ أيضاً أن القوى العسكرية لفرنسا المشتتة حالياً للحفاظ على أفرع تجارة ظلت حتى يومنا هذا المنابع التى لا تنضب لأكثر الحروب

المؤدية إلى الإفلاس ، فبتجمعها لحماية العرش ستزيد من قدرته للحفاظ على التوازن فى بقية أوربا .وبحكم أنها لا تسعى لمصالح شخصية فى المنازعات التى ستندلع ، وحرّة فى اختيار حلفائها ، فإن فرنسا سرعان ما سوف تقوم بوضع القوانين لكل الأمم . وإذا ما كان أمر فحص مثل هذا المشروع لا يمكنه إخفاء سهولة تنفيذه فحميتنا به لا يضاهيها إلا الحماس الذى يوحى به ، إذ إنه يزداد مع كل خطوة ، وتتكشف مزيد من المزايا بل يبدو أنها تدعو فرنسا للاستحواذ عليها ، خاصة فى الوقت الذى تعد فيه روسيا لقلب نظام الامبراطورية العثمانية ؛ وفى الوقت الذى يؤدى فيه استغلال المستعمرات البريطانية إلى تكوين قوى فى أمريكا التى سرعان ما ستسيطر تجارتها دائماً على تجاره مستعمراتنا ، حتى وإن لم تجتمع فيها ؛ وفى الوقت الذى نرى فيه تجارتنا مهددة من كل جانب بسبب الجهود التى ستبذلها القوى البريطانية للحصول على تعويض عن خسائرها .

" إن غزو مصر سيتدارك كافة الأخطار وهذه الحملة ، التى لن تكلفنا ما تكبدناه من نفقات فى ماهون (ميناء جزر مايوركا) ، هى أيضاً بمثابة أكبر عقبة يمكننا أن نضعها ضد نمو روسيا حينما لن يتمكن عجز الأتراك من وقفها عند حدودها ، ولابد من مراعاة هذه الملاحظة من نقطتين مختلفتين : التقليل من الأهمية التى تضفيها روسيا على مشاريعها وإجبار الأتراك على استخدام نفوذهم لاعتراضها " .

" إن الموضوع الأساس ، الذى يحرك طموحات بلاط سان بطرسبرج والذى هو أفضل ما يخدم تنفيذ الخطة السياسية لبطرس الأول ، هو بلا شك تجارة جنوب روسيا ، التى لا يمكنها الحصول عليها إلا عن الطريق الذى تحاول أن تفتحه لنفسها

من البحر الأسود إلى كل من جزر الأرخبيل والبحر الأبيض المتوسط . فما ستكون عليه مثل هذه التجارة عندما نصبح سادة مصر ، ويعطى هذا المستودع لفرنسا الأفضلية بالنسبة لكل أوربا كما يعطى فى نفس الوقت لبحرية الملك وسيلة السيطرة على البحر الأبيض المتوسط وعلى السلع الغذائية المصرية واحتياجات اليمن التى ستحقق لنا السيادة المطلقة لكل آسيا ؟ هل يمكننا أن نتصور روسيا وقد حُرمت من كل هذه المزايا لتجد فى ملكيتها للبحر الأسود وأراضى رومالية منفذاً كافياً لتعويضها عن مزايا هذه المِلكيّة ؟ هل يمكننا أن نتصور أيضاً حكومة النمسا ؟ ألن تكون أكثر حماساً لاتباع نسق التجارة التى تبنتها وأنها لن تتنازع مع روسيا على الولش ومولدافيا وسالونيكا ومقدونيا ؟

وإذا ما كان غزو مصر ، من مجرد وجهة نظر هذه التطلعات الطموحة لروسيا ، سيؤدى إلى تغييرها ووقفها عند حدها ، فإن هذا الغزو يمثل أيضاً الوسيلة الوحيدة التى يمكن استخدامها بنجاح لإجبار الأتراك على تبنى نسق نظام وطاعة تضعهم فى دفاع عن عدو لا يمتلكون حياله إلا الجهل الذى هم غارقون فيه . كما لا يمكننا اليوم إخفاء أنهم يقاومون أفضل النصائح ويقاومون اقتناعهم ؛ والأمل الوحيد الباقى لنا إذن هو إجبارهم . ولن يمكننا إخضاعهم إلا بالاحتياجات المادية الجسدية ، وغزو مصر يكفى لذلك . إذ إن القهوة وحدها ستصبح هى القانون فى الامبراطورية العثمانية .

كما سنجد فى التعصب الدينى للأتراك وسيلة أخرى لإخضاعهم لسيطرتنا، وذلك بأن نمسك بحاجتهم إلى مكة باحتياجاتهم لمنتجات اليمن التى تبادل المحاصيل التى تأخذها من مصر لقوتها ، بالبن الذى تنتجه والذى يمكننا أن نستولى عليه كله. وما أن نسيطر على هذا المحصول الذى جعلته العادة -أكثر من الحاجة الجسدية

إليه– ذا أهمية قصوى لدى الأتراك ، فإن فرنسا ستتحكم فيهم كما يحلو لها ؛ إضافة إلى محاصيل أخرى كالأرز والكتان التي لا يمكن للامبراطورية العثمانية الاستغناء عنها ، فستكون بمثابة مصلحة إضافية وستضمن لنا كياستها وحاجتها لفرنسا ، وخضوعها للنصائح التي سنسديها لها ، كما ستؤكد لنا ضمان تجارتنا حتى عندما ترى سياسة جلالة الملك تحوى العرش العثماني إلى آسيا . ويمكننا افتراض أنه إذا ما سبق غزو مصر هذا الحدث فلن يضر بصناعتنا بل سيساعد على نشرها ، ولن يكون الأمر عبارة عن مجازفة استثمار ، عندما نعتبر أن تجارة إزمير داخل آسيا الصغرى ستتجمع عن طريق الخليج الفارسي مع تجارة مصر لنستغل العائد منها عن طريق البحر الأحمر .

"وقبل أن نأخذ في الاعتبار بأية تنمية يمكن للغزو أن يأتي بها ، علينا أن نناقش التناقضات التي قد تثيرها القوى للإضرار به .

"ترى ما سوف يكون عليه تصرف الإنجليز ، الأعداء الحقيقيين لكل ما يمكنه أن يدعم تجارتنا ويقوى بحريتنا ؟ من المؤكد أنه لن ينعكس لا على الشواطئ التي يصعب الرسو فيها فى مصر والتى لا يمكن حتى أن تكون تحت مرمى المدافع ، ولا على شطآننا نحن . إن احتلال البحر الأبيض المتوسط لن يضرنا إلا بصورة طفيفة للغاية فى تجارتنا ذلك أن صغر حجم البواخر التى تستغله تهرب بسهولة من بواخرنا الكبيرة التى يرونها دون أن نراها . والأجانب ، بل وحتى الإنجليز هم الضامنون . والمخرج الوحيد الذى يظل أمامهم هو الاستيلاء على مستعمراتنا . فهم باستمرار أصحاب وضحايا خلافاتنا ، فهل علينا حمايتهم ؟ وهل يمكننا ذلك ؟ وهل يعنى ذلك أننا نتخلى عنهم للإنجليز بأن نترك للأمريكان عناية الدفاع عن أنفسهم ؟ لكن ، لكى

نحسم أفكارنا فى موضوع بمثل هذه الأهمية ، يجب ألا نفقد من صـوب أعيننـا أن مصر وحدها يمكنها أن تعوضنا كل المنتجـات وتضـاعف الإنتاج مئة مرة حينما نضعه تحت أيدينا . لنضاهى أملاك تهلك قوانا بغزوة تجمعها جميعها ؛ ولنقارن مختلف أفرع تجارتنا الحالية بجـذع الشـجرة والجـذور التى تضـم العالم وتضـمن لنا خلاصتها ، ولننظر أخيراً إلى تعويض ضياع الرجال الذى تسببه لنـا المستعمرات بالمحافظة علـى رعايانـا الذيـن سـننقلهم إلى مصـر . كمـا يمكـن أن نضيف أنـه لا يوجـد أى شـىء - لا مجهـود ولا تكـاليف - يمكنـه وقـف قـوة واقتصاد المستقبل عندما نضمنه الاستخدام الحالى للقوى والنقود .

" ولكى نواجه غزو مصر من هـذا المنطلـق ، يكفـى أن نـأخذ فـى الاعتبـار الثورة السياسية الناجمة عـن اكتشـاف الذهـاب إلى الهنـد بمـا أثـاره طريـق رأس الرجاء الصالح فى أوربا . وكم سيكون وقـع احتـلال مصـر أكـبر مـن ذلـك ! وإذا ما راعينا أن الطريـق عـبر وسـط أفريقيـا قـد أثـرى قـوى ظلـت تتصـارع وتتقاسم المزايا ، فهل يمكن الشك فى أن غزو مصر وهو يجمع كل هذه المزايـا لصالح فرنسا ألن يرفع مَلَكِيّتنا إلى أعلى درجات المجد والقوة والثراء ؟

" إن قناة الإسكندرية التى لا تستخدم اليوم إلا لجلب المياه إلى الصهـاريج ، ما أن يتم إصلاحها فى بضعه أشهر وبقليل من النفقات فى بلد تعد فيه الأيـدى العاملة شديدة الرخص ، ستفتح أول طريق للتجارة التى تنتقل حالياً عن طريـق الجمال أو المراكب التى تسير حذاء الشاطئ إلى رشيد ، حيث عبور السد ليس أقل خطورة من العـرب الذيـن عـادة مـا ينهبـون القوافـل . إن إصـلاح القنـاة سيؤدى إيضاً إلى جعل الحقول الممتدة بين الإسكندرية ورشيد وتحت ذلك حتى الرمانية ، ما أن نستأصلها من العرب ونرويها عـن طريـق قنـوات صغيرة يتـم

فتحها أيضاً ، ستجعل الزراعة أكثر ثراء فى مساحة مثلث تستند قاعدتـه علـى النيل ، ورأسه عند الإسكندرية ، وتبلغ مساحته أكثر من ستين ميلاً مربعة .

" إن هذا العمل ، الـذى سوف يربط تجارة الهند بمصر ، سيكون بمثابة القانون لكل شاطئ سوريا ويسمح لنا بالاحتفاظ تحت سيطرتنا بالأرز وبقية المحاصيل التى تنقص . كما أن ذلك يعنى الانفراد بالاستحواذ على كافة أنواع الحرائر ، وكافة الأقطان من رامة إلى الإسكندرية ؛ وذلك يعنى أيضاً أن نحكم قبرص وشاطئ كرامانية حتى رودس ، وأخيراً فإنه يعنى فرض إتاوة تبادلات تجارية على كل آسيا الصغرى" .

تقرير ماجالون

يعد شارل ماجالون Magallon من المستشرقين المحنكين ، و" كان من آوائل ذلك الصف الطويل من العملاء الجسورين ، الفضوليين ، البعاد النظر . ومن أهم من جندهم أو استعان بهم في عملياته دروفتي Drovetti ودى ليسبس De Lesseps " - كما يقول جان مارى كاريه . وفي عام ١٧٩٣ قامت فرنسا بتعيينه في وظيفة قنصل عام بالإسكندرية وعهدت به إلى أحد التجار الفرنسيين المقيمين في القاهرة منذ زمن بعيد ... وعملية تسليم العملاء بعضهم لبعض ليست بحاجة إلى تعليق ...

وترجع أهمية تقريره إلى أنه كان بمثابة اللحظة الفارقة في تحديد موعد قيام الحملة لغزو مصر ، وهو منشور في مجلة " ريفو ديجيبت " (مجلة مصر) العام الثالث ، المجلد الثالث ، يونيو ١٨٩٦ . ويقع في عشرين صفحة ، وتمت كتابته أو هو مؤرخ بتاريخ ٢١ بلوفيوز العام السادس (٩فبراير ١٧٩٨) . ويبدأ التقرير بالفقرة التالية :

" إن كافة عملاء الحكومة وهم يحيطونها علماً بالحالة التي كانوا عليها في مصر ، قد اشتكوا من الإحباطات التي يعاني منها الفرنسيون . وهؤلاء العلماء إضافة إلى الرحالة قد قاموا بالتعريف بحكومة ذلك البلد ومنتجاته وتجارته . وحيث إنني قادم للتو من مصر حيث أمضيت ثلاثين عاماً بصفة تاجر وخمسة أعوام بصفة قنصل عام للجمهورية ، فها أنا ذا أسارع بأن أحيط الحكومة علماً بالملاحظات التي أمكنني القيام بها فيها والوضع الراهن للفرنسيين المقيمين بها.

فهم يستحقون الاهتمام بهم والانتقام للسرقات والشتائم التى يتعرضون لها".

ثم يواصل قنصل فرنسا أو عميلها تقريره بعرض موجز للمماليك فى مصر، ثم ينتقل إلى المعاملات التجارية للفرنسيين وما يعانونه - على حسب زعمه ، وهو الأمر الذى اتُخذ ذريعة لقيام الحملة ... وينهى هذا الجزء بالعبارة التالية : "إن هذا الشعب يبغض طغاته ، لكنه ليست لديه الحيوية الكافية لمحاولة الخلاص منهم ، فذلك يقع على عاتق حكومتنا أن تجعله يشعر بثمن الحرية ، وبما أنه لا يمكنه تصور أن رغبة الانتقام قد تدفع حكومتنا إلى التصرف بقسوة ضد طغاة مصر بطردهم من مثل هذا البلد الجميل والاستحواذ عليه ، أعتقد أنه من المناسب أن نفهّمهم أهمية ذلك " ...

وتعرض بعد ذلك لأهمية ما فى مصر من منتجات زراعية ، ثم لتجارة مصر، وقد ورد بها تقريباً ما بالتقارير الأخرى ، لذلك نكتفى ببعض العبارات ذات الدلالة ، إذ يقول : " لذلك ، إما أن نصرف النظر عن كل تلك المميزات التى تمنحها لنا مصر ، وإما أن نستقر بها عنوة ... وإذا ما أثرينا شعب مصر ستزداد استهلاكاته بصورة مهولة وبذلك ستقوم هذه المِلْكِيّة بتعويض ما فقدناه فى تركيا ... إن غزوة مصر لتدميرها فقط لن يحتاج لأكثر من اثنى عشر إلى خمسة عشر ألفاً من الرجال ، لكن لكى نحافظ على مِلْكِيّتها ، فأعتقد أن الحكومة عليها أن تستعين بحوالى عشرين إلى خمسة وعشرين ألفاً " .

ثم ينتقل بعد ذلك إلى عرض رؤيته العسكرية لكيفية عملية الغزو فيقول : "إن أنسب موانينا لانطلاق الحملة هما طولون وكورفو ؛ أربع أو خمس سفن حربية كبيرة وست فرقاطات لحماية عملية الانتقال تعد أكثر من كافية لحماية الإنزال بالإسكندرية ، حيث لن نجد أدنى اعتراض ، فلا يوجد بهذه المدينة

سوى قلعة ستقوم فرقاطة واحدة بهدمها فى عشر دقائق ولا يوجد أى جندى فى حالة تمكنه من أية مقاومة .

" ولكى نهاجم البكوات بحيث نتفادى إراقة الدم الفرنسى ، فيجب أن نسحقهم بمدفعية قوية ، إن لديهم بضعة مدافع ، لكنهم لن يطلقونها سوى مرة واحدة .

" وسيكون على فرقنا أن تحارب من ستة إلى ثمانية آلاف من الرجال ، كلهم فرسان بجياد رائعة ومسلحين تماماً لكنهم ليست لديهم أية فكرة عن الطريقة التى يحارب بها الفرنسيون .

" ومن الضرورى تزويد السفن الحربية الكبيرة والفرقاطات ببضعة قادسات وأنصاف قادسات وزوارق إنقاذ حاملة مدافع لكى نصعد بها النيل ونبدد الفرق التى يمكن للبكوات أن يضعوها على روافد هذا النهر .

" ويجب أن تكون الحملة جاهزة للإقلاع من طولون أو من كوفور فى ١٥ يونيو لتصل إلى الإسكندرية حوالى ٥ يوليو لنحمى فرقنا من الطاعون الذى يكون قد انحسر فى غضون هذا الوقت أو قبل ذلك .

" وبما أن مركز الطاعون ليس فى الإسكندرية ولا فى أى منطقة أخرى فى مصر ، فمن السهل الحماية منه بعمل حجر صحى بالإسكندرية ، إذ يوجد بين مينائيها مبنى يصلح لذلك إذا احتاج الأمر .

" إن فرقنا لن تبق فى الإسكندرية إلا فترة قصيرة ، وقبل أن يتدارك البكوات الأمر ، من الصالح إرسال فرقة انقضاض قوية إلى رشيد لنكون سادة فرع النيل ولتسهيل انتقال فرقنا والمعدات إلى رشيد عن طريق البحر بلا عناء ولا مخاطر .

" وعند اجتماع فرقنا فى رشيد نتجه فوراً إلى القاهرة ، جزء عن طريق

الأرض بحذاء النيل والجزء الآخر بالسفن التى تسبقها المدفعية اللازمة . وتكفى خمسة أو ستة أيام للوصول إلى القاهرة .

" كما سيحتاج الجيش إلى مؤن تكفيه لمدة ثلاثين يوماً لنعطى لأنفسنا الوقت الكافى للوصول إلى القاهرة حيث سنجد الوفرة " .

ثم ينتقل قنصل فرنسا بعد ذلك إلى تصور لمعركة الأهرامات التى وقعت بالفعل عند تنفيذ الخطة ، فكتب يقول : " وعند الوصول إلى مشارف القاهرة قد تندلع معركة لا يمكن الشك فى نتيجتها ، فالبكوات سيحاولون الفرار إلى مصر العليا ، وسيكون من الضرورى أن نلاحقهم دون أن نعطيهم فرصة لالتقاط أنفاسهم ، وسوف يذهبون إلى أسوان . وعندئذ ستصبح مصر العليا بأسرها ملكاً لنا ويجب أن نهتم بشحن المحاصيل فوراً إذ ستنفعنا فى دفع نولون سفن الشحن التى ستعود لتزويد جنوب فرنسا وجزر كورفو وزانت وسيفالونيا .

" وفى الوقت الذى يتم فيه محاصرة البكوات بالجزء الأكبر من جيشنا ، يجب أن نترك فى القاهرة من خمسة إلى ستة آلاف رجل للسيطرة عليها . وهذا الرقم أكثر من كاف إذ لن يكون بها مماليك .

" هذه الخطة للغزو المطلق الذى أميل إليه ، لكن إذا ما ارتأت الحكومة وجهات نظرأخرى وتؤثر ترك الحكومة المصرية قائمة ، على الأقل شكلاً ، فلا يوجد ما يتم تغييره فى هذه الخطة لا من حيث الهجوم ولا القوى التى يتعين استخدامها . يجب أن نأتى على المماليك بقدر إمكاننا ثم ندخل فى اتفاقية تسليم مع الباقين .

" وهذه الخطة الثانية ستتطلب عملية اختيار بين القائمين حالياً وأنا أعرف

تماماً الذين لا يجب أن نثق فيهم ومن يجب علينا أن نختارهم (...) .

" ومن الضرورة تحسين حالة العلماء (علماء الشرع ومفسروا القرآن وشيوخه) ذلك أن هذه المجموعة لها تأثير شديد على الشعب ، فيجب أن نبحث عن كيفية استمالتهم لنا وأن نتركهم ينعموا ببعض الاعتبار والتقدير بأن نظهر وكأننا نقدرهم أيضاً (...) .

" إننى أدعو الحكومة لتختار بين جنرالاتها وأن يقع اختيارها على أكثرهم حكمة إذ سيكون عليهم إقناع أفراد جيشنا باحترام معتقدات شعب جاهل ، فالنقاط الأساسية التى يجب ألا يزعجوه بها هى الدين والنساء . فأى عدم حرص فى أحد هذين الموضوعين قد يعود علينا بأكبر الأضرار فى نظر هذا الشعب حديث الاستعمار . ونفس الاختيار يجب أن يراعى عند انتقاء الإداريين إذ أن الحكمة والتصرف الحميد تعد ضرورة مطلقة للسيطرة عليهم .

" أما الأقباط فهم من أبناء البلد وهم وحدهم المستخدمون فى الجباية بالقرى ، ويجب أن نلحق بخدمتنا أهم من فيهم لنعرف بواسطتهم مساحات الأراضى التى تضمها القرى لنبدأ فى عملية الشراء بسعر يشجع على البيع دون أن نرهق حكومتنا .

" إن الخطتان يمكن تنفيذهما بنفس السهولة الاستيلاء على مصر بكل سيادة ، سيجعلنا نستفيد بكل المزايا ، وأن نترك المظهر للسلطان ، فإن ذلك سيسبب لنا الكثير من التضحيات بأن نتنازل بالعوائد للأشخاص الذين سنستخدمهم (...) .

" المهم بالنسبة لنا هو أن نحتفظ فى مصر بقوى ضخمة يمكنها الحفاظ على وجودنا

والتصدى لأية محاولات سرية أو علنية من جانب الوالى أو حلفائه للإضرار بنا .

" وبعد الاستيلاء على مصر يجب على حكومتنا أن تبدأ فى تحصين الإسكندرية ومدخل فرع رشيد ، وأن تقيم قلعة فيما بينهما ، وأخرى فى دمياط عند مصب النيل من جانب البر . كما يجب أن نقيم قلعة أخرى مناسبة فى الصالحية ، وتقع عند بداية صحراء غزة وهى المكان الوحيد الذى يمكن لفرق الأعداء أن تدخل مصر للهجوم علينا من سوريا " .

ثم يتطرق قنصل فرنسا ثانية إلى مزايا التجارة من خلال البحر الأحمر وكل ما سيقع من أضرار على الإنجليز وما يقومون به من تجسس عبر البواخر التجارية وإنشاء مصرف بريطانى فى مصر لتغطية عمليات التجسس عن طريق العلاقات التجارية والسياسية . ثم يعود إلى خطته قائلاً : " إذا ما كانت الحكومة مستعدة لتوجيه الضربة القاضية للإنجليز فيجب أن تهتم بتنفيذ هذا المشروع العظيم وأن ترسل للحملة على مصر خمسة وثلاثين ألف رجلاً بدلاً من عشرين ألفاً ، لكى تتمكن فى نفس الوقت من غزو هذا البلد ومن إرسال خمسة عشر ألف رجل إلى الهند . إن السرعة مطلوبة ، وهذا المشروع السرى يمكن تنفيذه فى الوقت المناسب لكى لا يتمكن الإنجليز من وضع العراقيل ، وإذا لم يحاطو به علماً إلا فى اللحظة التى تقلع فيها قواتنا من موانينا ، فسنكون فى الهند قبل أن يمكنهم القيام بأى اعتراض لقواتنا . إذ سيحتاجون إلى ستة أشهر لوصول قواتهم فى حين سنكون هناك فى أقل من أربعة .

" وقد ترى الحكومة أنه من الحرص تأجيل حملة الهند عن طريق السويس إلى العام المقبل ، وأن تتم بصورة أكثر متانة ، إلا أنه يتعين علىّ أن ألفت نظرها بأن الإنجليز ما أن يعلموا أننا امتلكنا مصر سيتصدون لمشاريعنا بنقل المزيد من

قواتهم فى الهند . قد تبدو خطتى التى أقترحتها جسورة ، إلا أنها الوسيلة الوحيدة للإسراع بضياع الأعداء الذين ما زالوا يتصدون لجهودنا (...) .

" إن الرحلات عن طريق رأس الرجاء الصالح شديدة الطول ، فالباخرة المرسلة إلى الهند لا تقطع هذه المسافة أبداً فى أقل من عامين من هذا الطريق ، أما سفننا المتجهة من السويس أثناء الرياح الموسمية المناسبة فستصل إلى الهند وتقوم بتفريغ حمولتها وتعبئة بضائعها وتعود فى ثمانية أو تسعة أشهر على الأكثر . إن منتجات ذلك البلد والتى قد صارت أشياء ضرورية بالدرجة الأولى بالنسبة لكل الشعوب ستكون ملك أيدينا ، ومصانعنا بمختلف أنواعها ستجد لنفسها مخرجاً مؤكداً .

" إن علاقاتنا فيما بين السويس والهند ستمنحنا الملكية التامة لتجارة اليمن، إذ أن كافة أنواع البن الجيدة لذلك البلد ستمر عبر أيدينا وسوف نبيعها لتركيا وللبلدان الأخرى التى جعلتها مشروبها الأساسى . إن تجّارنا فى مصر بانطلاقهم فى هذه الاستثمارات الواسعة سوف يستخدمون فى البحر الأحمر وفى الهند كثيراً من البواخر وسوف يكوّنون كماً ضخماً من البحاّرة وبذلك سننزع من منافسينا كل أفرع التجارة التى تعطيهم السيادة فى البحر الأحمر وتدر عليهم سنوياً مبالغ طائلة .

" إن جمارك السويس والإسكندرية وحدهما ستدران على الدولة موارد هائلة ستصل قيمتها إلى عدة ملايين ، الأمر الذى إذا ما أضفناه إلى الضرائب التى سنفرضها ستجعل مِلْكِيّة مصر بالنسبة للجمهورية فى غاية الأهمية .

" إن غزو مصر لا يعود علينا إلا بالمزايا ولا يمثل أية معضلة . إنها عملية سهلة ، ولا يمكننا أن نخشى من فقد عدد يذكر من أبنائنا . ولا يمكنها أن

تكون شديدة التكاليف نظراً لقربها . ولا يتعيّن على الحكومة أن تنظر إلى هذه المصروفات إلا كمقدم تدفعه وسرعان ما سيعود عليها بعد ستين يوماً من امتلاكها ، بجمع مبالغ طائلة من الشعب ، دون الإثقال عليه ، من تلك المحاصيل الوفيرة التى يملكها الطغاة الذين سوف تحطمونهم أو على الأقل سوف تطردونهم من ذلك البلد المهم " .

ثم يعود ثانية إلى احتمال ردود فعل الإنجليز وصلتهم بالمماليك مفنداً أى عقبات ليختتم تقريره هذا بالإلحاح على أهمية الوقت قائلاً : " لنسرع إلى تنفيذ هذه الغزوة لذلك البلد المهم ، وليكن هجومنا ضخماً قوياً لا لكى نستولى عليه دون أن نتكبد أية خسارة ، ولكن لنبقى فيه بقوة ودون أن نخشى أى تدخل من أية دولة أخرى " .

ومن المعروف تاريخياً أنه قد سافر بنفسه لتسليم هذا التقرير شخصياً لضمان سريّته.

خلاصة القول ...

قليلة هى الكلمات ... قليلة هى الكلمات التى يمكنها التعبير عن النفاق بكل ما به من خيانة وغدر وكذب ، وفجور ، سواء أكان ذلك على مستوى الدول أم الأفراد ...

فإذا ما استخلصنا العبارات الأساسية من كل ما تقدم بصورة موجزة ، وأغلبها بأقلام من خططوا لها وقاموا بتنفيذها أو كتبوا عنها أثناء رحاها لوجدنا أن :

- مشروع الحملة قديم تم وضعه أيام الملكية وأعيدت دراسته بعد الثورة الفرنسية لأهميته الحيوية المتعددة الجوانب ، وأنه حرب – صليبية – سياسية– اقتصادية – تجارية – عسكرية – علمية – حضارية لإنشاء مستعمرة استيطانية دائمة ، لتعويض فرنسا عن الضياع الحتمى لمستعمراتها فى كل من أمريكا والهند .
- وجعل مصر قاعدة عسكرية – تجارية – صليبية للانطلاق منها إلى كافة المناطق المحيطة بها إلى أقصى امتداداتها : قارة أفريقيا شمالها وأعماقها ، وشبه الجزيرة العربية من جهة ، والهند بكل ما يقع فى الطريق إليها من جهة أخرى .
- وأن الجانب الاقتصادى لها يرمى إلى استغلال المحاصيل المصرية والتحكم فى تسويقها واستنبات ما تحتاجه فرنسا من محاصيل غير متوفرة لديها .
- وأن الجانب التجارى لها يرمى إلى السيطرة على مجال تجارة كل هذه

القارات المذكورة والبلدان ، إلى جانب مجال تجارة البحر الأبيض المتوسط ، لتصبح فرنسا سيدة التجارة فى العالم بأسره .

- وأن الهدف من هذا المشروع ، إضافة إلى ما تقدم ، هو تصويب ضربة فى مقتل لكل من إنجلترا وأمريكا وبقية طاقم البلدان الاستعمارية – لا بكل ما سبق فحسب ، وإنما بالعمل على شق قناة السويس على أنها ضرورة اقتصادية دينية للربط بين القارات . لذلك نص البند الثالث من القرار الصادر فى ٢٣ جرمينال (١٢ أبريل١٧٩٨) على أن : "القائد الأعلى لجيش الشرق سيشق قناة السويس ويتخذ كافة الإجراءات اللازمة لضمان ملكية البحر الأحمر التامة للجمهورية الفرنسية " .

أما الجانب العلمى والحضارى المزعوم لهذه الحملة ، فهو بمثابة الوجه الآخر لنفس العملة ، إذ تم استجلاب هؤلاء العلماء والفنانين لخدمة مصالح الحملة البحتة دون غيرها . فالهدف المعلن الصريح من أجل إنشاء لجنة العلوم والفنون هو :

- مساعدة الجيش ووضع العلم فى خدمة الحرب والحكومة الفرنسية، والعمل على تنظيم وإدارة البلد الذى تم استعماره (وذلك وفقاً لقرار نابليون الخاص بإنشاء المعهد المصرى فى ٥ فروكتيدور العام السادس (٢٢أغسطس ١٧٩٨) .
- استخدام الحرب لإثراء الميراث العلمى والفنى لفرنسا .
- تغيير عادات وتقاليد المصريين وخلع الحجاب عن النساء وفرض النمط الغربى بما فيه انحلال قيمه وأخلاقه .
- تكوين أتباع وعملاء لفرنسا ممن يقبل من المواطنين ومن الطلبة المبعوثين إلى فرنسا .

- استخدام عظمة مصر القديمة وآثارها كوسيلة لإضفاء المزيد من الأمجاد للحملة .
- سرقة الآثار والمخطوطات والنفائس لإثراء متاحف فرنسا ومكتباتها .
- وأن كل ما تم انشاؤه في مصر من منجزات كان لتسهيل عملية استغلالها .
- كما تم فرض ضرائب على الشعب المصرى لتغطية نفقات الجيش والأسطول الفرنسي الذى يحتلها !
- والقول بأن علاقاتنا مع فرنسا ترجع إلى أيام الحملة قول مغلوط بدليل أن عملية الاختراق قد بدأت منذ بداية اهتمامها بالشرق لاستغلاله ، وأن كل التقارير السرية التجسسية كتبها موظفو السلك الدبلوماسي والسياسي والتجار والرحالة وأعضاء البعثات التبشيرية ... ولولا عملية الاختراق القديمة الممتدة هذه لما ارتسمت صورة احتلال مصر والاستحواذ عليها بالدقة التي بنى عليها العملاء الجدد ، السابقين على الحملة مباشرة ، كل التقارير المفصلة التى رتبت لعملية الغزو ...

أما خديعة " الدفاع عن مصر ضد ظلم المماليك " أو حتى ذريعة "تصويب أحوال التجّار والباعة الفرنسيين" فيكفي أن نطالع المسميات التي يصفون بها المصريين من كلمات من قبيل " العدو " ، " الأعداء " ، " الكفرة " ، "الشعب الهمجي" ، " الشعب الرخو الذى لا كرامة له ولا كبرياء " ... "شعب جاهل" ويكفي أن نطالع ما اقترفوه من قتل الآلاف وحرق الأبرياء والقرى ، وما أحدثوه من أهوال ومجازر اقشعرت لها أبدان من اقترفوها ، بل وما تعمدوه من

تجويع للأهالى حتى الموت ، وما قاموا به من انتقام أعمى وعمليات إعدام جماعية فى سبيل استيطانهم لاستغلال البلاد ، لندرك ونفهم حقيقة الدور الذى لعبه جيش الغزاة أو أعضاء لجنة العلوم والفنون وخداعهم " بالدفاع " عنا !

أما الإسلام الذى زعم نابليون أنه أتى " للدفاع " عنه أيضاً ، بل أعلن أنه ورجال جيشه مسلمون مؤمنون بالله وبنبيه ، فقد رأينا ما فعله بالأزهر الشريف وتحويله إلى اسطبل ، وما هدموه من مساجد وآثار إسلامية دون غيرها ، بل رأينا ما لا سابقة له فى التاريخ من إعدام مائتين من شيوخ الأزهر وطلابه ورشق رءوسهم على العصى والتجول بها فى القاهرة لترويع سكانها... كما رأينا قتله اليومى المنتظم لهم حتى اجتث جيل الصحوة الإسلامية التى كانت تلوح فى الأفق - الأمر الذى خاضه نابليون بضراوة ودأب لاقتلاع الإسلام وتغريب مصر وتنصيرها والإجهاز على الامبراطورية العثمانية ... كما رأينا الدور الخسيس الذى قام به علماء الحملة وجيشها ومستشرقوها وموظفوها الدبلوماسيون والمدنيون من أعمال تجسس وخداع رخيص استمراراً لكل من سبقوهم من بنى جلدتهم لتنفيذ أطماعهم ...

فهل بعد كل هذا الوضوح الصريح المرير نحتفل بأى صورة من الصور ؟ أم إن الاحتفال يعد خيانة بكل المقاييس ؟ خيانة فى حق الوطن ، وفى حق الشعب، وفى حق التاريخ ؟

فبدلاً من النفاق الرخيص وبدلاً من أن تتهمنا الأجيال القادمة بالنفاق الخسيس ، وبدلاً من أن نتواطأ فى عملية تزييف التاريخ والحقائق المعاشة ، التى تتم بالخيانة والكذب والغدر والفجور ، بدلاً من كل ذلك فلنجعل من هذا العام عام يقظة لضمائرنا ، وألا نصمت على ذلك " الحصاد الرهيب الذى

أثروا به مقابرنا " على حد قول أحدهم ... لتكن لنا وقفة صريحة حاسمة مع ذلك "الصديق" الذى يخطط لحملة استعمارية – صليبية جديدة متلفعة بمسوح الفرانكوفونية وبالمشاركة فى فرض العولمة والتغريب واقتلاع الهوية ...

بدلاً من الشعارات البراقة التى تتشدق بها فرنسا لإغراقنا فى ضياع جديد، فليقم علماؤها ومؤرخوها بحصر آلاف القتلى المصريين والفلسطينيين والأتراك الذين حصدهم رجال الحملة ، وليحصوا عدد المدن والقرى والآثار الإسلامية التى هدموها أو أحرقوها ... وليحصوا عدد الآثار المصرية والقبطية والإسلامية وكل المخطوطات والنفائس التى نهبوها وأثروا بها متاحفهم ومكتباتهم ، وليحسبوا المبالغ الطائلة التى جمعوها غدراً وخداعاً – لا من الضرائب الظالمة التى فرضوها على الشعب المصرى فحسب ، لتغطية نفقات الحملة ، ولا كل ما جنته فرنسا من مكاسب بالتلاعب فى دفعها مستحقات الحكومة المصرية من عائد شركة قناة السويس قبل تأميمها ومغالطة عدم تقدير الجنيه الورق بالقيمة الحقيقية للجنيه الذهب عند ارتفاع سعره إلى سبعة أضعاف ، وهذه قضية أخرى ، وإنما ليضف من يدّعون العلم والحضارة فى بلاد الحرية والعدل والمساواة إلى كل ما تقدم من أموال نهبوها ، الدخل المهول الذى تحصل عليه فرنسا حتى الآن من عرضها كل تلك الآثار التى سرقوها علناً وفى الخفاء وما زالوا ... وليسددوا ما عليهم من ديون ثابتة فى ذممهم أمام الله وأمام التاريخ وأمام العالم .

وأن تدرك فرنسا ، بأبنائها من قادة ومواطنين ، إن كانت تبحث لنفسها عن مكانة فى الشرق فى القرن الواحد والعشرين ، أن تراجع ماضيها برمته بكل ما فيه من مواقف استعمارية استغلالية ظالمة ، وتعمل على تصويبها ، وأن تفهم أن التعامل بين الغرب والشرق ، أو بين الشمال والجنوب كما يقولون كناية عن

موضع السادة والعبيد ، أن التعامل معنا لابد وأن يكون من منطلق علاقة إنسانية تكاملية، لقد قاموا باستغلالنا قروناً حتى اعتصرونا وجعلوا منا ما أطلقوا عليه "العالم الثالث"– ذلك العالم المتخلف الذى لولاه لما قامت لفرنسا أو غيرها من البلدان الاستعمارية أية قائمة ... وعليهم الآن اتخاذ الإجراءات الفعالة الحاسمة لتصويب مواقفهم بدلاً من الاحتفالات الجوفاء الزائفة ...

ولنجعل من هذا العام عام يقظة لضمائرنا ونطالب بمستحقاتنا ، ونطالب بعودة آثارنا ، ونطالب بلد العلم والحرية بتصويب صورة مصر والمصريين وصورة الإسلام والعرب فى كل كتاباتهم ، منذ بدأوا الكتابة عن الشرق ليستغلوه ، ومنذ بدأوا الكتابة عن الإسلام لمحاربته واقتلاعه ... فكلها سموم فى صور مشوهة مغلوطة وعديمة الأمانة ، نطالعها فى معظم كتاباتهم عن الشرق برمته ، وهى الصورة التى يتجرعها أبناء فرنسا ، وتزرع الكراهية والعداء فى قلوبهم منذ الصغر ، ليشبوا بتلك البغضاء المبهمة كجزء من شخصيتهم لكى لا تميل قلوبهم للإسلام والمسلمين ...

لنجعل من هذا العام ومن الذكرى السوداء لتلك الحملة بداية صحوة جادة لدراسة وثائقها وفهم حقيقة ما يحاك لنا من شراك جديدة ... ولننفض عن كاهلنا قيود التغريب والتبعية المذمومة والنفاق وندافع عن حقوقنا وتراثنا وديننا قبل أن نضيع فى غياهب القرن الواحد والعشرين التى ينصبونها لنا ...

لتتحول كل قطرة دم أهدروها ظلماً وعدواناً إلى قلب نابض بالحياة والإيمان ... إلى قلب يجاهد فى سبيل الحق المهدر ... فى سبيل الله وفى سبيل الوطن المنهوب ...

كشف المراجع

أ - المراجع الفرنسية :

- Bainville , Jacques : L'Expedition francaise en Egypte , in : Precis de l'histoire de L'Egypte T. 3 , IFAO , 1933 .
- Carre Jean-Marie : Voyageurs et ecrivains Francais en Egypte, 2 T. , le Caire , IFAO , 1932 .
- Las Cases , Comte de : Memorial de Ste. - Helene , Paris , ed . du Seuil , 1968 .
- Charles-Roux , Francois : les Origines de L'Expedition d'Egypt , Paris ,
  - - : le but colonial de l'Expedition francaise en Egypt , in : Revue des etudes napoleonienne , 13e annee , T.22, Janv.-Juin 1924 . SlatKine Reprints , Geneve , 1976 .
  - - : la Politique Musulmane de Bonaparte , in : Revue des etudes nap. , 14e annee , T. 24 , Janv.-Juin 1925 , Slatkine Reprints , Geneve , 1977 .
  - - : le Projet francais de la conquete de L'Egypte , sous le regne de Louis XVI . Le Caire , IFAO , 1929 .
- Denon , Vivant : Voyage dans la Basse et la Haute Egypte .
- Herold , Christopher : Bonaparte en Egypte , Paris , Plon , 1964 .
- La Jonquiere , C. de : L'Expedition d'Egypte (1798-1801) Paris , s.d. , 5 Vol. .

ب- المراجع العربية :

الشيخ عبد الرحمن الجبرتى : " تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار " دار الجيل ، د.ت .

محمود شاكر : " الطريق إلى ثقافتنا " الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧

فهرس

صدر للمؤلفة

- "محاصرة وإبادة ... موقف الغرب من الإسلام" المؤسسة الجامعية – بيروت ١٩٩٣م .
- "ترجمات القرآن إلى أين ؟ وجهان لجان بيرك" دار الهدى – القاهرة ١٩٩٤م طبعتان .
- " يوحنا بولس الثانى والإسلام " . دار القدس ١٩٩٤م .
- " الخطة الخمسية للبابا يوحنا بولس الثانى " . دار القدس ١٩٩٤م .
- " تنصير العالم " . دار الوفاء ١٩٩٥م .
- " رسالة مفتوحة إلى الملك فهد بن عبد العزيز " . دار القدس ١٩٩٥م .
- " الفاتيكان والإسلام " . دار القدس ١٩٩٥م .
- " التعايش السلمى بين المسلمين وغير المسلمين " . دار الهداية ١٩٩٥م .
- مقالات من رينيه جينو (الشيخ عبد الواحد يحيى) . دار الأنصار ١٩٩٦م .
- هدم الإسلام بالمصطلحات المستوردة (الحداثة والأصولية) . دار الأنصار ١٩٩٦م.
- " يوميات فنان " . دار المعارف ١٩٧١م .
- " فولتير رومانسياً " (بالفرنسية) . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠م .
- " لعبة الفن الحديث " (بالفرنسية) ايبيس ١٩٨٤م .
- "لعبة الفن الحديث بين الصهيونية – الماسونية وأمريكا" دار الزهراء ١٩٩٠م.
- " النزعة الإنسانية عند فان جوخ " . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣م .
- " الإسلام وحضارته " (كتاب أندريه ميكيل) المكتبة العصرية . بيروت ١٩٨١م .
- " الإسلام الراديكالى " (كتاب إيتيين برونو) . دار الزنابيلى – مالطة .
- " التعسف فى استخدام الحق " (رسالة دكتوراه فى القانون الإسلامى بالفرنسية لمحمود فتحي) . المؤسسة الجامعية . تحت الطبع .
- " الريح " (رواية كلود سيمون – جائزة نوبل) . دار الهلال ١٩٨٦م .
- " هيجيل والمسيحية " (للأب جاستون فيسار) . دار الزنابيلى .

رقم الإيداع
٩٨/٧٣٤١
الترقيم الدولى .I.S.B.N
977-5658-16-0

الاشراف والتنفيذ الطباعي



دار النهار

للطباعة والنشر والتوزيع